ليلة الكروان

وقصص أخرى

جابرييل جارثيا ماركيث

ترجمة : شوقى فهيم

سلسلة آفاق عالمية

68



الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
آفاق
عالمية

هذه مجموعة من القصص القصيرة للكاتب المدهش جابرييل جارثيا ماركيث، أحد أبرز كتاب القصة والرواية فى زماننا؛ حرص المترجم أن يضمنها قصتين هما، فى نظر كل من تناول كتابة ماركيث بالنقد، من النماذج القياسية فى القصة القصيرة فى العالم، وهما «أجمل رجل غريق فى العالم» و «عينا كلب أزرق»، وقد جاءت ترجمة شوقى فهيم لقصص المجموعة خالية من المعاظلة والتكلف للدرجة التى يشعر معها القارئ أنه يقرأ النص فى لغته الأصلية، وأن الترجمة إبداع مواز.

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

الهيئة
العامة
لقصور
الثقافة

www.gocp.gov.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg
www.qatreinada.com.eg

السعر: جنيهان



سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• ليلة الكروان
• ترجمة وتقديم: شوقى فهيم
• الطبعة الأولى:
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
• الطبعة الثانية:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2008 م
167 ص. 13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سوزان عبد العال
• رقم الإيداع: ١١٧١٠ / ٢٠٠٨
• الترقيم الدولى: 1-672-437-977
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

68

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

ليلة الكروان

بحر الزمن المفقود

قرب نهاية يناير كان البحر يزداد صخباً وهياجاً، وبدأ يلقى بمخلفاته الثقيلة على المدينة. وبعد أسابيع قليلة ، كان كل شيء قد تلوث بمزاجه الصعب غير المحتمل، منذ ذلك الوقت، لم يكن العالم يستحق أن يعيش المرء فيه. على الأقل حتى ديسمبر التالى، فلم يكن أحد بالمدينة يظل ساهراً بعد الساعة الثامنة. لكن السنة التى جاء فيها المستر هربرت لم يتغير فيها البحر. ولا حتى فى فبراير، على العكس صار البحر أكثر نعومة وأشد تألقاً، وخلال الليالى الأولى من مارس كان يعطى عبير ورود.

شم توبياز هذا العبير. كان دمه يجذب سرطان البحر فأمضى نصف الليلة يطاردها بعيداً عن سريره حتى هب النسيم مرة ثانية وأصبح فى مقدوره أن ينام. خلال لحظات قلقه الطويلة ، تعلّم كيف

يميز كل التغيرات التى تحدث فى الهواء. لذلك فحين استقبل رائحة ورود لم يكن بحاجة لفتح الباب ليعرف أن هذا الشذا قادم من البحر.

صحا من نومه متأخراً. كانت كولتلد تشرع فى إعداد النار فى الساحة. كان النسيم باردا وكل النجوم فى مكانها، لكن كان من الصعب عدها من فوق ونزولاً حتى خط الأفق. بسبب الضوء المنعكس من البحر بعد أن تناول توبياز قهوته كان ما يزال نشوان بتلك الليلة. قال متذكراً:

«حدث شيء غريب جداً الليلة الماضية».

لم تشم كلوتلد، بالطبع، هذا العبير، إنها تنام نوماً ثقيلاً حتى أنها لا تتذكر أحلامها.

قال توبياز

«كانت رائحة ورد، وأنا متأكد أنها جاءت من البحر».

قال كلوتلد:

«أنا لا أعرف كيف تكون رائحة الورد».

ربما كانت على حق. فقد كانت المدينة قاحلة، أرضها صلبة يغطيها الملح الصخرى، ويحدث مرات قليلة فقط أن يحضر بعضهم باقة زهور من خارج المدينة، ليلقوا بها فى البحر وراء أحد الموتى.

قال توبياز:

«رائحة الورد هى تلك التى كانت موجودة فى الرجل الغريق من جوا كامايال».

ردت كلوتلد مبتسمة:

«حسناً. إذا كانت رائحة طيبة فتأكد أنها لم تأت من هذا البحر».

كان حقاً بحراً قاسياً فى بعض الأيام حين كانت الشباك لا تحضر شيئاً سوى المخلفات العائمة، كانت شوارع المدينة تظل مليئة بالسمك الميت بعد أن ينحسر المد. ولم يكن الديناميت يجلب إلى السطح سوى حطام السفن الغارقة فى القاع.

كانت النساء القليلات اللاتى بقين فى المدينة، مثل كلولتد، يمتلئن مرارة وحسرة. ومثلها كانت زوجة جاكوب العجوز التى صحت من نومها ذلك الصباح مبكرة عن كل يوم، رتبت وجلست لتناول الأفطار وقد ران عليها الأسى. قالت لزوجها:

«إن أمنيتى الأخيرة أن أدفن حية».

قالتها كما لو كانت على فراش الموت، لكنها كانت تجلس أمام المائدة فى غرفة طعام ذات نوافذ ، كان يأتى من خلالها ضوء مارس الساطع فيصب وينتشر فى أرجاء البيت. وأمامها كان يجلس جاكوب العجوز يتناول لقيمات فى هدوء وسكينة، ذلك الرجل الذى أحبها كثيراً وطويلاً.

استمرت قائلة:

«أريد أن أموت وأنا متأكدة اننى سأوضع تحت الأرض مثل الناس الصالحين. والطريقة الوحيدة للتأكد من ذلك هو أن أدور على الناس أسألهم هذا الإحسان المقدس أن يدفنونى حية».

رد جاكوب العجوز بهدوء عظيم:

«لن تسألى أى شخص، سأضعك بنفسى».

قالت:

«إذن لنذهب.. لأننى أموت من وقت طويل».

نظر جاكوب العجوز إليها بامعان شديد. كانت عيناها الشىء الوحيد الذى ما زال ينعم بالشباب. عظامها وهنت وبدت هيأتها كالأرض المشققة. قال لها:

إنك أحسن من أى وقت مضى».

فتنهدت قائلة:

– الليلة الماضية شممت رائحة الورد».

– «لا تهتمى بذلك. مثل هذه الأشياء تحدث دائما للفقراء من أمثالنا».

– «لا شىء من هذا، لقد صليت دائما أن أعرف موعد موتى قبل أن يأتينى بمدة كافية ، حتى أستطيع أن أموت بعيداً عن البحر. إن رائحة الورد فى هذه المدينة لا تكون إلا رسالة من الله.

لم يفكر جاكوب العجوز فى شىء سوى أن يطلب منها مهلة قصيرة لينظم أموره . لقد سمع أن الناس لا يموتون حين ينبغى أن يموتوا بل حين يريدون ذلك، وكان منزعجاً جداً لهذا الهاجس الذى انتاب زوجته. وقد سأل نفسه هل يستطيع ، حين تأتى اللحظة ، أن يدفنهاحية.

فى الساعة التاسعة فتح دكانه. وضع كرسين ومنضدة صغيرة بجانب الباب، وعلى المنضدة وضع رقعة الشطرنج وأمضى الصباح

كله يلعب مع من يتصادف أن يمر. من منزله نظر إلى المدينة القاحلة، خرائب المدينة وعليها بقايا ألوان قديمة تآكلت بفعل الشمس، وفى نهاية الشارع بدت قطعة من البحر.

قبل الغذاء لعب، كالعادة، مع دون مكسيمو جوميز. ولم يكن بإمكان جاكوب العجوز أن يتصور خصماً أكثرانسانية من رجل خاض حربين أهليتين وخرج سليما وضحى بعين واحدة فى الحرب الأهلية الثالثة. بعد أن خسر جاكوب العجوز دوراً متعمداً دعاه إلى دور آخر ثم سأله:

«قل لى شيئاً واحداً، يادون مكسيمو: هل تدفن أن تدفن زوجتك حية»؟.

أجاب دون مكسيمو:

«بالتأكيد، صدقنى أذا قلت لك أن يدى لن ترتعشا».

ران الصمت والدهشة على جاكوب العجوز. ثم ، بعد أن تعمد فقدان أحسن قطعة فى اللعب، تنهد قائلا:

«حسناً، يبدو أن بنزا ستموت».

لم تتغير تعبيرات وجه دون مكسيمو جوميز:

«فى هذه الحالة فليس هناك دا ع لدفنهاحية».

قال ذلك ثم التهم قطعتين وكش الملك. ثم نظر إلى خصمه بعينين دامعتين:

«ماذا بها»؟.

فشرح له جاكوب العجوز قائلا:

«الليلة الماضية شمت رائحة ورد».

فقال دون مكسيمو جوميز:

إذن فنصف المدينة سيموت. هذا هو ما كانوا يتحدثون فيه كلهم هذا الصباح».

كان من الصعب على جاكوب العجوز أن يخسر مرة أخرى فيثير غيظه. أدخل المنضدة والكرسيين، وأغلق الدكان، وراح يتجول فى كل مكان بحثاً عن شخص شم الرائحة. فى النهاية كان توبياز وحده هو الواثق من ذلك. لذلك سأله أن يتوقف عند بيته، كما لو كان ماراً بالصدفة، ويخبر زوجته بكل الموضوع.

فعل توبياز كما طلب منه. فى الساعة الرابعة ارتدى أحسن ما عنده من ملابس ليوم الأحد، وأظهر عند مدخل البيت حيث كان الزوجة تجلس دائما بعد الظهر تجمع حاجيات جاكوب الأرمل العجوز.

جاء بهدوء حتى أن المرأة جفلت:

«الرحمة يا إلهى. لقد حسبتك الملاك جبرائيل».

فقال توبياز:

«حسناً. بامكانك أن ترى أننى لست هو. أننى أنا. وقد جئت لأقول لك شيئاً».

عدلت من وضع نظارتها ثم واصلت العمل، وقالت:

«أعرف الأمر كله».

قال توبياز: «أراهن أنك لا تعرفين».

فقالت– «لقد شممت أنت رائحة ورد الليلة الماضية»

فسأل توبياز فى أسى:

«وكيف عرفت؟».

فقالت المرأة:

«فى مثل سنى، يكون الإنسان قد أمضى وقتاً طويلاً فى التفكير حتى يصبح فى مقدوره أن يصير نبياً محنكاً».

كان جاكوب العجوز وراء الجدار الفاصل فى ظهرالمتجر يضغط أذنه ليسمع. وما أن سمع ذلك حتى وقف خجلاً، وصاح من خلال الحائط «هل رأيت يا أمرأة» ثم لف وظهر فى المدخل «ليس الأمر كما ظننت على أى حال».

فقالت دون أن ترفع رأسها:

«هذا الولد كان يكذب، أنه لم يشم أى شىء».

قال توبياز:

«كانت الساعة حوالى الحادية عشرة، وكنت أطارد سرطان البحر».

أنهت المرأة إصلاح ياقة قميص.

«كذب» هكذا أصرت. «كل الناس تعرف أنك مخادع». ثم قطعت الخيط بأسنانها ونظرت إلى توبياز من فوق نظارتها:

«الشىء الذى لا أفهمه.. لماذا كلفت نفسك بوضع فزلين على شعرك ولمعت حذاءك ؟ فقط لتأتى وتصبح غير محترم أمامى».

منذ ذلك الوقت بدأ توبياز يرقب البحر. يعلق أرجوحته الشبكية

فى مدخل البيت قرب الساحة ويمضى الليل منتظراً، مندهشاً للأشياء التى تحدث فى العالم بينما الناس نيام. لليال كثيرة استطاع أن يسمع الخربشة اليائسة لسرطانات البحر وهى تحاول أن تتسلق دعائم البيت، حتى مرت ليال كثيرة على هذه الحال إلى أن كلت هذه المخلوقات من كثرة المحاولات. ودخل توبياز ليرى كيف تنام كلوتلد. اكتشف كيف تتغير نغمات شخيرها وتصبح من «تون» أعلى كلما اشتدت الحرارة حتى تصير نغمة واحدة واهنة فى شهر يوليو.

فى البداية كان توبياز يرقب البحر مثلما يفعل الناس الذين يجيدون ذلك، نظرته مركزة على نقطة واحدة فى الأفق. يرقب البحر بينما تتغير ألوانه، ويرقبه وهو يطفئ أنواره فيصير معتماً وقذراً ويقذف تجشؤه من بقايا السفن عندما تهيج الرياح العاصفة معدته. وشيئاً فشيئاً تعلَّم كيف يرقب البحر كما يفعل الناس الأكثر مهارة، أنه لا ينظر إليه فحسب ولكنه لا يستطيع نسيانه حتى فى نومه.

ماتت زوجة جاكوب العجوز فى أغسطس. ماتت وهى نائمة وكان عليهم أن يلقوا بها- مثل أى شخص آخر- فى بحر بلا ورد. ظل توبياز ينتظر. انتظر طويلاً حتى صار وجوده فى هذا الانتظار. ذات ليلة، فيما هو يغالب النعاس فى أرجوحته الهزازه، تأكد أن شيئاً فى الهواء قد تغير. كانت موجة متقطعة، مثلما حدث عندما ألقت سفينة يابانية بحمولة بصل متعفن فى مدخل المينا. ثم تكثفت الرائحة وغلظت وصارت بلا حركة حتى الفجر. وعندما أحس توبياز أنه يستطيع إمساكها بيده واستعراضها، عندئذ فقط قفز من أرجوحته

وذهب إلى حجرة كلوتلد. هزها عدة مرات.

قال لها: «هاهى».

كان على كلوتلد أن تزيح الرائحة جانباً كما تزيح خيوط العنكبوت حتى تنهض.

ثم سقطت ثانية على فراشها وهى تقول:

«الله يلعنها».

قفز توبياز تجاه الباب، وجرى وسط الشارع، وراح يزعق. زعق بكل قوته، كان يأخذ نفساً ثم يصيح من جديد، ثم صمت قليلاً وأخذ نفساً أعمق، وكانت الرائحة ما تزال على البحر. لكن أحداً لم يجب. عندئذ راح يدق الأبواب من بيت إلى بيت، حتى البيوت التى لا يسكنها أحد. إلى أن اختلط صياحه مع نباح الكلاب، وأيقظ كل الناس.

كثيرون منهم لم يستطيعوا شم رائحة لكن آخرين، خاصة كبار السن، ذهبوا ليستمتعوا بها على الشاطئ كانت عبيراً مركباً يفوق أية رائحة شموها فى الماضى. بعضهم، وقد أرهقوا من كثرة الشم، رجعوا إلى بيوتهم ولكن معظم الناس بقوا ليقضوا ليلتهم نائمين على الشاطئ. وفى الفجر كانت رائحة الورد نقية تماماً.

نام توبياز معظم النهار، لحقت به كولتلد وقت القيلولة وأمضيا فترة بعد الظهر يمرحان على السرير حتى دون أن يغلقوا الباب المؤدى إلى الساحة. فى أول الأمر فعلوها مثل دود الأرض، ثم مثل الأرانب، وأخيراً مثل زوج من السلحفاة، حتى خيم الظلام مرة

أخرى. كانت ما تزال رائحة الورد عالقة بالهواء. وأحياناً كانت موجة من الموسيقى تصل إلى حجرة النوم.

قالت كلوتلد.

«إنها قادمة من جهة محل كاتارينو، لابد أن أحداً قد جاء إلى المدينة».

جاء إلى المدينة ثلاثة رجال وامرأة. وفكركاتارينو أن آخرين سوف يأتون بعد ذلك وحاول أن يصلح الجرامفون. ولما لم يستطع، طلب ذلك من بانشو أباركيد الذى يعمل كل شيء لأنه لا يملك أى شيء، إلى جانب أن لديه صندوق أدوات ويدين ماهرتين.

كان محل كاتارينو مبنياً من الخشب ويواجه البحر. وكانت به حجرة واحدة واسعة مليئة. بالمقاعد الخشبية والمناضد الصغيرة وعدد من حجرات النوم الصغيرة فى الخلف . وفيما هم يرقبون بانشو أباركيد كان الرجال الثلاثة والمرأة يشربون فى صمت وهم جالسون فى البار يتثاءبون بالتناوب.

بدأ الجرامفون يعمل جيداً بعد عدة محاولات. وعندما سمع الناس الموسيقى، بعيدة لكن مميزة، كفوا عن الثرثرة نظروا كل إلى الآخر وللحظة لم يجدوا ما يقولونه لأنهم فى هذه اللحظة فقط أدركوا كم تقدمت بهم السن منذ أخر مرة سمعوا فيهاموسيقى.

وجد توبياز كل الناس ساهرين بعد الساعة التاسعة. كانوا جالسين فى مداخل بيوتهم يستمعون إلى اسطوانات كاتارينو القديمة، وقد بدوا مستسلمين لما يحدث وكأنهم يرون كسوف

الشمس. كل اسطوانة كانت تذكرهم بشخص مات، أو بمذاق الطعام بعد مرض طويل، أو بشيء كان عليهم أن يفعلوه اليوم التالى منذ سنوات مضت ولم يفعلوه أبدا لأنهم قد نسوا.

توقفت الموسيقى حوالى الحادية عشرة. والكثيرون ذهبوا إلى فراشهم وهم يتوقعون أن تمطر السماء لأن سحابة داكنة كانت معلقة فوق البحر لكن السحابة هبطت، طفت بعض الوقت على السطح، ثم غاصت فى جوف الماء. النجوم فقط ظلت عالياً.

وبعد وقت قصيرخرج النسيم من المدينة وعاد برائحة الورد.

فسر دون مكسيمو جوميز الأمر قائلاً:

«هذا بالضبط ما قلته لك يا جاكوب».

فقال جاكوب: «لا سمح الله، هذه الرائحة هى الشيء الوحيد فى الحياة الذى يأتى إلى متأخراً جداً».

كانا يلعبان الشطرنج فى المتجر الخاوى دون أن يعيرا أى انتباه لأغانى الاسطوانات كانت ذكرياتهما من القدم بحيث لا تجود اسطوانات كانت ذكرياتهمامن القدم بحيث لا تجود اسطوانات قديمة بما فيه الكفاية لكى تستثيرهما.

قال دون مكسيمو جوميز: «من ناحيتى، أنا لا أصدق الكثير من أى شيء من هذا، بعد كل هذه السنين التى أمضيناها نأكل التراب، وكل هاتيك النساء اللاتى اشتهين قطعة أرض صغيرة يزرعن فيهاالزهور، فليس من الغريب أن يشم رجل أشياء مثل هذه بل ويظن أنها حقيقة».

- «لكننا نستطيع أن نشمها بأنوفنا نحن» هكذا قال جاكوب العجوز.

قال دون مكسيمو جوميز: «لا يهم فخلال الحرب، عندما خسرنا الثورة تماماً، كنا نتحرق شوقاً لأن يكون لنا جنرال حتى أننا رأينا دوق مارلبورو يظهر بلحمه ودمه. لقد رأيته أنا بعيني هاتين يا جاكوب».

كان الوقت بعد منتصف الليل. عندما أصبح جاكوب العجوز وحده أغلق متجره وأخذ مصباحه إلى حجرة النوم. ومن خلال النافذة المواجهة لوهج البحررأى الصخرة الخطرة التى يلقون منها موتاهم».

نادى بصوت رقيق: «بيترا».

لم تستطع أن تسمعه. فى هذه اللحظة كانت تطفو فوق سطح المياه تحت شمس النهار المتألقة فى خليج البنغال. أدارت رأسها لتنظر خلال الماء، كما لو أنها تنظر من خلال نافذة عرض مضيئة، إلى عابرة محيطات ضخمة. لكنها لم تستطع أن ترى زوجها الذى كان يتأهب، فى الجانب الآخر من العالم، لسماع اسطوانات كاتارينو مرة أخرى.

قال جاكوب العجوز: «فقط فكرى، منذ ستة شهور فقط ظنوا أنك مجنونة والآن هاهم يقيمون مهرجاناً لتلك الرائحة التى جاءت حاملة موتك معها».

أطفأ النور وذهب إلى سريره. بكى بهدوء الكبار، بذلك النشيج

الخالى من الجمال، لكنه سرعان ما نام.

عندما رفع رأسه فجأة تنهد وهو يقول:

«سأمشى من هذه المدينة لو استطعت ، سأذهب مباشرة إلى الجحيم أو إلى أي مكان آخر لو حصلت فقط على عشرين بيزو مرة واحدة».

منذ تلك الليلة ولعدة أسابيع، ظلت الرائحة على البحر. نفذت إلى خشب المنازل وإلى الطعام، وإلى ماء الشرب، ولم يكن ثمة مهرب من رائحة الورد.

فى يوم جمعة رحل الرجال والنساء الذين كانوا قد جاءوا إلى محل كاتارينو، لكنهم عادوا يوم السبت التالى مع كل الغوغاء. ووصل أناس كثيرون يوم الأحد. كانوا يروحون ويجيئون فى كل مكان مثل النمل، يبحثون عن شىء يأكلونه وعن مكان ينامون فيه، حتى أصبح من المستحيل أن تسير فى الشوارع.

جاء أناس أكثر. النساء اللائى رحلن حين ماتت المدينة رجعن إلى محل كاتارينو. صرن أكثر بدانة وأثقل مكياجاً وأحضرن آخر الاسطوانات التى لم تذكر أى واحد بأى شيء. بعض سكان المدينة السابقين عادوا. كانوا قد تركوها بحثاً عن الثروة فى مكان آخر وعادوا يتحدثون عن حظهم لكنهم يلبسون نفس الملابس التى سافروا بها وصلت الموسيقى والعروض الجانبية، وعجلات الحظ، وقارئات البخت ، والمدافع والرجال الذين يلفون الأفاعى حول رقابهم والذين يبيعون أكسير الحياة الخالدة. ظلوا يأتون لأسابيع كثيرة. حتى بعد

أن جاءت الأمطار الأولى وأصبح البحرخشناً واختفت الرائحة.

وصل كاهن بين الأفواج الأخيرة. تنقل فى كل مكان، يأكل خبزاً مغموساً فى القهوة، وشيئاً فشيئاً، حرم كل شىء جاء قبله: ألعاب الحظ، الموسيقى الجديدة والرقص عليها، وحتى النوم على الشاطئ. ذات مساء وفى منزل ملخور، وعظ عن رائحة البحر. قال:

«اشكروا الله، يا أبنائى، لأن هذه رائحة الله».

قاطعه أحدهم:

«كيف تقول هذا يا أبتى؟ إنك لم تشمها بعد».

فرد عليه:

«الكتاب المقدس واضح صريح بخصوص هذه الرائحة، إننا نعيش فى قرية مباركة».

كان توبياز يتسكع فى المهرجان كمن يمشى وهو نائم. أخذ كلوتلد ليشاهدا النقود. راهنا بمبالغ ضخمة على لعبة الروليت، ثم أحصيا النقود وأحسا بالغنى الفاحش مع كل الأموال التى كسباها ولكن فى ليلة من الليالى. ليس هما فحسب، ولكن كل الجموع التى تحتل المدينة، رأوا نقوداً فى مكان واحد أكثر مما يمكن أن يتصوروه.

كانت هذه الليلة التى وصل فيهاالسيد هربرت. ظهر فجأة، أمام منضدة فى وسط الشارع، وعلى المنضدة وضع صندوقين كبيرين مملوءين بأوراق البنكنوت. كان ثمة نقود كثيرة حتى أن أحداً لم يلاحظها أول الأمر، لأنهم لم يصدقوا أنها حقيقية. لكن لما بدأ السيد

هربرت يدق جرساً صغيراً، كان على الناس أن يصدقوه، وتجمعوا ليصغوا إليه:

«أناأغنى رجل فى العالم،لدى نقود كثيرة لا أجد لها مكاناً يكفى لحفظها فيه. وإلى جانب ذلك، فإن قلبى كبير للغاية حتى أنه لا يجد مكاناً يكفيه داخل صدرى، لهذا قررت أن أسافر حول العالم لكى أحل مشاكل بنى آدم».

كان طويلاً أحمر الوجه، يتكلم بصوت عال ودون أى توقف، وبشكل تلقائى كان يحرك يديه اللتين بدتا دائما كأنهما حلقتا بالموسى للتو ، تحدث لربع ساعة ثم استراح. ثم قرع الجرس وبدأ يتكلم مرة أخرى. وفى منتصف حديثه، رفع واحد من الجمع قبعته وقاطعه:

«اسمع يا سيد، لا تتحدث كثيراً وابدأ فى توزيع النقود».

أجاب السيد هربرت:

«ليس بهذه السرعة توزيع النقود بلا نظام أو سبب، طريقة غير عادلة وأيضا غير معقولة على الاطلاق».

وبعينيه حدد مكان الرجل الذى قاطعه ، وأشار إلى أن يتقدم. وأفسح الجمع له الطريق، واستمر السيد هربرت يقول: «من ناحية أخرى فهذا الصديق الذى لا يصبر سيعطينا فرصة لشرح أكثر النظم عدالة لتوزيع الثروة».

مد له يده ورفعه إلى فوق:

«ما اسمك؟»

«باترشيو».

«حسناً يا باترشيو، أنت مثل أى شخص آخرعندك بعض المشاكل لم تستطع حلها لبعض الوقت».

خلع باترشيو قبعته ثم ثبتها مع إيماءة من رأسه.

«ماهى؟»

«حسناً. مشكلتى هى أننى لا أملك أى نقود».

«كم تحتاج؟».

«خمساً وثمانين بيزو».

صاح السيد هربرت صيحة انتصار وقال «خمساً وثمانين بيزو» وصاحبته الجموع في التصفيق . واصل السيد هربرت كلامه:

«عظيم جداً يا باترشيو. الآن قل لنا شيئاً واحداً: ماذا تستطيع أن تعمل؟».

– «أشياء كثيرة».

– «ركز على شىء واحد، الشىء الذى تجيده أكثر من غيره».

– «حسناً استطيع أن أقلد الطيور».

صفق السيد هربرت مرة ثانية وهو يتجه للجمهور:

– «إذن أيها السيدات والسادة فصديقنا باترشيو الذى يقوم بعمل عظيم وهو تقليد أصوات الطيور، سيقلد خمساً وثمانين طائراً مختلفاً وبهذه الطريقة سيحل أكبر مشكلة فى حياته».

وأمام الصمت المشدوه للحشد راح باترشيو يقلد الطيور. أحياناً يصفر، وأحياناً بحنجرته، قلد كل الطيورالمعروفة ثم راح يقلد طيوراً

لم يعرفها أحد وعندما انتهى، دعا السيد هربرت إلى «التصفيق له» وأعطاه خمساً وثمانين بيزو.

«والآن تعالوا واحداً واحداً. سأقف هنا حتى الغد أحل المشاكل».

عرف جاكوب العجوز بهذا الحدث من تعليقات الناس المارين أمام بيته، ومع كل تفصيله خبر كان قلبه يكبر ويكبر حتى أحس به ينفجر. وسأل.

«ماذا تظن هذا الرجل؟»

هز دون مكسيمو جوميز كتفيه وقال:

«لابد أنه محب للبشر».

وقال جاكوب العجوز:

«لو أقدر أن أعمل شيئاً، لاستطعت أن أحل مشكلتى فى الحال والتى. إنه مبلغ ليس بالكبير: عشرون بيزو».

قال دون مكسيمو جوميز:

«أنت تلعب أدوارشطرنج ممتازة».

تظاهرجاكوب العجوز أنه لم ينتبه لما قاله جوميز، لكنه ما أن أصبح بمفرده حتى لف رقعة وصندوق الشطرنج فى ورقة صحف وذهب ليتحدى السيد هربرت. انتظر دوره حتى منتصف الليل. لكن السيد هربرت حزم صناديقه وقال وداعاً حتى الصباح التالى.

لم يذهب إلى فراشه ظل يتجول فى محل كاتارينو مع الرجال الذين يحملون صناديقه والجمع يتبعه إلى كل مكان ومعهم مشاكلهم. وشيئاً فشيئاً بدأ يواصل حل المشاكل، وحل الكثير منها حتى أنه لم

يبق سوى النساء وبعض الرجال الذين لم تحل مشاكلهم.

وفى نهاية المكان كانت هناك امرأة وحيدة تهوى لنفسها بورقة اعلانات. زعق السيد هربرت يسألها:

«ماهى مشكلتك؟»

توقفت المرأة عن التهوية لنفسها. ثم زعقت عبرالحجرة: «لاتحاول أن تلخبطنى بألاعيبك ياسيد جورنجو لأنها تخرج من عينى ليس عندى أى مشاكل ، وأنا مومس».

هز السيد هربرت كتفيه. واستمر يشرب بيرته المثلجة بجانب الصناديق المفتوحة منتظراً مشاكل أخرى. كان يتصبب عرقاً. وبعد قليل، اندفعت نحوه امرأة وتحدثت معه بصوت خفيض. كانت بحاجة إلى خمسمائة بيزو.

سألها السيد هربرت:

«كيف ستوزعين هذاالمبلغ؟»

أجابت:

«الواحد بخمسة»

فقال السيد هربرت:

«فقط تصورى...، أن هذايعنى مائة رجل».

قالت:

«لا يهم، إذا استطعت الحصول على هذاالمبلغ مرة واحدة فسيكونون آخر مئة رجل فى حياتى».

نظر إليها ملياً. كانت شابة صغيرة السن، رقيقة، لكن فى عينيها

تصميماً بسيطاً.

قال السيد هربرت: «وهو كذلك. أدخلى الحجرة وسأبدأ فى إرسال كل واحد ومعه خمسة بيزو لك».

ذهب إلى الباب الخارجي ودق جرسه الصغير.

فى السابعة صباحاً وجد توبياز محل كاتارينو مفتوحاً. كانت كل الأنوار مطفأة. وكان السيد هربرت نصف نائم تفوح منه رائحة البيرة وهو ينظم دخول الرجال إلى حجرة البيت..

ودخل توبياز أيضا عرفته الفتاة ودهشت لرؤيته فى حجرتها.

- «حتى أنت؟».

- «قالوا لى أن ادخل هنا، أعطونى خمسة بيزو وطلبوا منى ألا أطيل».

نزعت الملاءة الغارقة من على السريروطلبت من توبياز أن يمسك الطرف الآخر. كانت ثقيلة مثل سجادة. عصراها ولفاها حتى النهاية فعاد لها وزنها الطبيعي.

وباشرا أمورهما ونزل العرق من الجانب الآخر. قام توبياز بالواجب بأقصى جهده. وقبل أن يخرج من الحجرة وضع البيزات الخمسة فوق كومة النقود التى كانت تعلو جوار السرير. قال له السيد هربرت:

«ابعث بكل من تستطيع ، لنرى أن كان يمكن أن ننتهى من هذاالأمر قبل الظهر».

فتحت البنت الباب عدة سنتيمترات وطلبت بيرة باردة. كان ثمة

عدد من الرجال منتظرين.

سألت:«كم عدد الباقين؟».

أجابهاالسيد هربت: «ثلاثة وستون».

تبعة جاكوب العجوز طول اليوم ومعه رقعة الشطرنج . جاء دوره مع حلول الليل وشرح مشكلته وقبل السيد هربرت. وضعاكرسيين ومنضدة صغيرة فوق المنضدة الكبيرة وسط الشارع، ولعب جاكوب النقلة الأولى. كان آخر دور يستطيع أن يتعمد خسارته. وخسر. قال السيد هربرت:

«أربعين بيزو. سأمنحك فرصة نقلتين».

وكسب مرة أخرى. كان يلعب بطريقة ساحرة، يخمن نقلات خصمه ويكسب وتعب الجمهورمن متابعة اللعب. وحين قرر جاكوب العجوز الاستسلام كان مديناً بمبلغ خمسة آلاف وسبعمائة واثنتين وأربعين بيزو وثلاثة وعشرين سنتا.

لم تتغير تعبيرات وجهه. كتب الرقم على قطعة ورق كانت فى جيبه . ثم لم رقعة الشطرنج ووضع القطع فى الصندوق ، ولف كل شىء فى ورقة الصحيفة. وقال للسيد هربرت:

«إفعل بى ما تشاء، لكن دع هذه الأشياء لى أعدك أنى سأقضى باقى حياتى أجمع هذه النقود».

نظرالسيد هربرت إلى ساعته وقال:

«إننى أسف أشد الأسف، إن وقتك سينتهى بعد عشرين دقيقة».

وانتظر حتى تأكد أن خصمه لم يجد حلاً.

- «أليس لديك شىء آخرلتقدمه ؟»

- «شرفى».

فسر السيد هربرت سؤاله قائلاً:

«أعنى شيئاً تتغيرألوانه عندما تمر عليه الفرشاة المغمورة فى الزيت».

قال جاكوب العجوز كأنه وجد حلاً للغز:

«بيتى. انه لا يستحق الكثير ولكنه بيت».

هذاما كان من السيد هربرت وكيف أخذ ملكية بيت جاكوب العجوز. وكذلك أخذ ملكية منازل وممتلكات أناس آخرين لم يستطيعوا دفع ديونهم، لكنه دعا إلى أسبوع للموسيقى والألعاب النارية والاكروبات وتحمل مسئولية الاحتفالات كلها.

كان اسبوعاً لا ينسى. تحدث السيد هربرت عن القدر المعجز لهذه المدينة بل أنه خطط لمدينة المستقبل، بنايات زجاجية عظيمة على قممهاسطوح للرقص وعرض هذه الرسوم على الجمهور نظروا فى دهشة ، محاولين أن يجدوا أنفسهم بين المارة المرسومين فى لوحات السيد هربرت الملونة، لكنهم كانوا يرتدون ثياباً فاخرة فى الرسم حتى أنهم لم يستطيعواالتعرف على أنفسهم ،المهم أن يستخدموه كثيراً إلى هذه الحد.

ضحكوا للخاطرالذى ألح عليهم بأنهم سيبكون مرة أخرى فى أكتوبر وظلوا يعيشون فى ضباب الأمل حتى دق السيد هربرت جرسه الصغير وقال إن الحفل انتهى. عندئذ فقط نال بعض الراحة.

قال جاكوب العجوز: إنك ستموت بهذه الطريقة التى تحيا بها».

فرد السيد هربرت:

«إن لدى نقوداً كثيرة حتى أنه لا يوجد عندى سبب يجعلنى أموت».

ارتمى على سريره. نام عدة أيام نوماً عميقاً، يشخر مثل أسد، ومرت أيام كثيرة حتى أن الناس تعبوا من انتظاره وكان عليهم أن يحفروا بحثاً عن سرطان البحر ليأكلوه. وصارت اسطوانات محل كاتارينو عتيقة حتى أن أحداً لم يعد يستطيع سماعها دون أن يذرف الدمع، وكان على كاتارينو أن يغلق محله.

كان قد مر وقت طويل منذ أن نام السيد هربرت، عندما طرق القسيس على باب جاكوب العجوز. كان الباب موصداً من الداخل. ولما كان تنفس الرجل النائم يستهلك الهواء ، فقد فقدت الأشياء وزنها وبدأت تطفو.

قال القسيس:

أريد أن أكلمه».

فردعليه جاكوب العجوز:

«عليك أن تنتظر»

– «ليس عندى وقت كاف».

– «أجلس يا أبتي وانتظر . ومن فضلك تحدث معى فى نفس الوقت. لقد مر وقت طويل لا أعرف ماذا يحدث فى العالم.

– «لقد تشتت الناس كلهم. ولن يمر وقت طويل حتى تعود المدينة

إلى ماكانت عليه. هذاهو الشيء الجديد الوحيد».

– «سيعودون عندما تأتى رائحة الورد من البحر مرة أخرى».

– «لكن فى نفس الوقت علينا أن نغذى الأوهام لدى أولئك الذين ما زال لديهم شيء ،من الضرورى أن نبدأ بناء الكنيسة».

– «لهذا السبب جئت لتتحدث مع السيد هربرت».

هذا صحيح، إن جرنجو رجل بر وإحسان

– «إذن انتظرلحظة يا أبتى. قد يستيقظ الآن».

لعباالشطرنج. كان الدور طويلاً وصعباً استمر بضعة أيام، لكن السيد هربرت لم يستيقظ من نومه.

راح اليأس يتسلل إلى داخل القسيس. أخذ يتجول فى كل مكان وبيده طبق نحاس يسأل الناس التبرع لبناء الكنيسة، لكنه لم يجمع شيئاً كثيراً. صار ينحف شيئاً فشيئاً وهو يتجول ليشحذ، ورقت عظامه، حتى أوشكت أن تسقط إذا صرخ شخص بجانبه، وفى يوم أحد جلس على الأرض ومد كلتا يديه لكن أحداً لم يلحظه. ثم حزم ملابسه فى حقيبة والنقود التى جمعها فى حقيبة أخرى وقال وداعاً إلى الأبد. قال للذين حاولوا أن يثنوه عن الرحيل:

«الرائحة لن تعود مرة ثانية. يجب أن تواجهواالحقيقة: لقد سقطت المدينة فى خطيئة مميتة».

عندما استيقظ السيد هربرت كانت المدينة قد عادت إلى ما كانت عليه من قبل. كان المطر قد أحدث تخميراً فى النفايات التى تركتهاالجموع فى الشوارع وكانت التربة قد عادت قاحلة كالأحجار

مرة أخرى.

قال السيد هربرت وهو يتثاءب:

«لقد نمت زمناً طويلاً».

قال جاكوب العجوز:

«قروناً».

- «إنى أموت جوعاً».

- «وكذلك كل الناس ،ليس أمامنا سوى أن نذهب إلى الشاطئ ونحفر بحثاً عن سرطان البحر».

رآه توبياز يحفر فى الرمل وفمه يزبد وقد دهش إذ اكتشف أن الاغنياء حين يتضورون جوعاً يصبحون مثل الفقراء تماماً.

لم يجد السيد هربرت ما يكفيه من سرطانات البحر. وعند حلول الليل دعا توبياز أن يأتى للبحث عن شىء يؤكل فى أعماق البحر.

حذره توبياز قائلا:

«اسمع، الأموات فقط هم الذين يعرفون ما بأعماق البحر».

قال السيد هربرت:

«العلماء أيضا يعرفون ،تحت بحارالغرقى توجد السلحفاة بلحمها الشهى. أخلع ملابسك وهيا بنا».

ذهبا فى أول الأمر سبحا أفقيا ثم راحا يغوصان إلى أعماق المياه حيث توقف ضوء الشمس ثم ضوء البحر، وبدت الأشياء مرئية بضوئها الخاص فقط مرا بقرية مغمورة بالمياه. رجالها ونساؤها على ظهور الخيل يدورون حول كشك للموسيقى. كان يوماً مشرقاً وكانت

ثمة زهور ذات ألوان زاهية فى الشرفات.

قال السيد هربرت:

«إنه يوم أحد غاص فى المياه حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً. لابد أنه كان نوعا من الطوفان».

استدار توبياز نحو القرية، لكن السيد هربرت جذبه ليواصل الغوص إلى الأعماق.

قال توبياز:

«ثمة وردهناك. أريد كلوتلد أن تعرف ماهى الورود».

رد السيد هربرت:

«يمكنك أن تعود فى وقت آخر براحتك. الآن أنا أموت من الجوع».

راح يغوص إلى أسفل مثل الاخطبوط، بضربات بطيئة واهنة من ذراعيه. وظن توبياز الذى كان حريصاً على ألا يغيب السيد هربرت عن عينيه أن هذه هى طريقة الأغنياء فى السباحة وشيئاً فشيئاً كانا يتركان بحر الأهوال العادية ويدخلان بحر الموتى.

كان هنالك الكثيرون منهم حتى ظن توبياز أنه لم ير أناساً بمثل هذه الكثرة على الأرض. كانوا يعومون بلا حركة، وجوهم إلى أعلى، على مستويات مختلفة، ولهم كلهم نظرة الأرواح المنسية.

قال السيد هربرت:

«إنهم ميتون عجائز جداً لقد استغرقوا قروناً ليصلوا إلى هذه الحالة من الراحة الأبدية».

وعند الأعماق الأبعد من ذلك، فى مياه الموتى الأكثر قدماً، توقف السيد هربرت. رأى توبياز، والسيد هربرت أيضاً فى نفس اللحظة، أمرأة شابة تمرمن أمامهما . كانت تعوم على جنبيها ، وعيناها مفتوحتان، وخلفها تيار من الزهور.

وضع السيد هربرت أصبعه على شفته وظل هكذاحتى مرت آخر زهرة.

قال: «هذه أجمل امرأة رأيتها فى حياتى».

وقال توبياز: «إنها زوجة جاكوب العجوز. إنهاأصغر بخمسين عاماً، ولكنها هى إننى واثق من هذا».

قال السيد هربرت:

«لقد سافرت كثيراً وكثيراً !! وهى تحمل خلفها زهوراً من كل بحارالعالم».

وصلا إلى القاع. دارالسيد هربت عدة دورات فوق الأرض التى بدت مثل لوح اردواز مصقول. وتبعه توبياز. ولم يكتشف وجود السلحفاة إلا عندما اعتادت عيناه الضوء الخافت فى الأعماق. كان ثمة آلاف منها، مستلقيات على القاع بلا حركة كما لو كانت قد تحجرت.

قال السيد هربرت:

«إنهاحية. ولكنها نائمة منذ ملايين السنين».

قلب واحدة منها. وبلمسة خفيفة دفعها إلى فوق وفرد الحيوان

النائم يديه وراح يتجه نحو الأعلى. وتركهاتوبياز تمر.

ثم نظر تجاه السطح ورأى البحر كله مقلوباً رأساً على عقب.

قال: «إنه أشبه بالحلم».

قال السيد هربرت:

«من مصلحتك ألا تخبر أحداً عن هذا . فقط تخيل الفوضى التى ستحل بالعالم لو اكتشف الناس هذه الأشياء.

كان الليل قد انتصف عندماعادا إلى القرية. ايقظا كلوتلد لتغلى بعض الماء.

ذبح السيد هربرت السلحفاة، ولكن ثلاثتهم اشتركوا فى مطاردة القلب وقتله للمرة الثانية بعد أن وثب وقفز فى الساحة فيماهم يقطعون الحيوان إلى أجزاء. أكلوا وشبعوا حتى أصبحوا لا يستطيعون التنفس.

قال السيد هربرت

– «عظيم يا توبياز، عليناأن نواجه الواقع».

– «بالطبع».

– «والواقع يقول أن رائحة الورد لن تعود مرة ثانية».

– «بل ستعود ثانية».

وهنا تدخلت كلوتلد لتقول:

– «لن تعود، لأسباب كثيرة منها أن هذه الرائحة لم تأت أبداً. إنك أنت الذى ملأت عقول الناس بهذه الحكاية».

قال توبياز لزوجته:

«إنك شممتها بنفسك».

فقالت كلوتلد:

«كنت نصف نائمة بالليل. لكن الآن فأنا لست متأكدة من أى شيء بخصوص هذا البحر».

قال السيد هربرت:

«إذن سأمضى أنا فى طريقى». ثم واصل حديثه متوجهاً إليهما: «أنتما أيضاً يجب أن ترحلا. هناك أشياء كثيرة تفعلانها فى هذا العالم بدلا من التضور جوعاً فى هذه المدينة».

رحل وظل توبياز فى الساحة يعد النجوم من فوق وحتى خط الأفق واكتشف وجود ثلاث نجمات زيادة عما كانت عليه فى ديسمبر الماضى. نادته كلوتلد من حجرة النوم. لكنه لم يعرها أى اهتمام.

أصرت كلوتلد:

«تعال هنا أيها القصير البدين. لقد مرت سنوات منذ أن فعلناها مثل الأرانب».

انتظر توبياز وقتاً طويلا. وحين دخل إليها فى النهاية كان قد غلبها النوم. أيقظها نصف إيقاظ ، لكنها كانت متعبة حتى أنهما خلطا الأمور واستطاعا فقط أن يفعلاها مثل دود الأرض.

قالت كلوتلد متذمرة:

«إنك تفعل مثل معتوه حاول أن تفكر فى شيء آخر».

– وإننى أفكر فى شيء آخر».

وأرادت أن تعرف فيما يفكر لكنه أصر ألا يخبرها إلا بشرط

واحد وهو أن تكتم السر عن أي مخلوق.

ووعدته كلولتد.

قال توبياز:

«هناك قرية فى قاع البحر، بها منازل صغيرة بيضاء وملايين الزهور على الشرفات».

رفعت كلولتد يديها إلى رأسها وزعقت:

«أوه !! أوه يا توبياز، من أجل خاطر ربنا، لا تبدأ هذه الأشياء مرة أخرى».

لم يقل توبيلز أى شيء آخر. تكور على حافة السرير وحاول أن ينام. ولكنه لم يستطيع حتى الفجر، عندما تغيرت الرياح وتركته سرطانات البحر فى سلام.

أجمل رجل غريق فى العالم

مهداة إلى الكاتب المصرى
يحيى الطاهر عبد الله الذى لقى
مصرعه فى أبريل ١٩٨١

كانت مجموعة من الأطفال، هى أول من رأى ذلك النتوء الداكن اللون يتسلل خلسة عبر حياة البحر وقد ظنوا أنه سفينة من سفن الأعداء.. ثم رأوا أنه لا يوجد به أعلام أو صوارى فظنوا أنه حوت: ولكن حين سحبوا ذلك الشىء إلى الشاطئ ونزعوا ما علق به من الأعشاب البحرية وقناديل البحر، وبقايا السمك وحطام السفينة عندئذ فقط رأوا أنه رجل غريق.

لعبوا معه طوال بعد الظهر، كانوا يدفنونه فى الرمال ثم يحفرون الرمال ويخرجونه منها مرة أخرى، حتى تصادف أن رآهم شخص ما ونشرالخبر فى القرية لاحظ الرجال الذين حملوه إلى أقرب منزل أن وزنه أثقل من أى رجل ميت عرفوه من قبل، كان فى ثقله كأنه

حصان ، وقال بعضهم لبعض إنه ربما كان طافيا على وجه الماء وقتاً طويلا جداً وأن المياه تسللت إلى داخل العظام. ولما وضعوه على الأرض قالوا إنه أطول من كل الرجال لأن مساحة البيت لم تتسع لطوله إلا بالكاد لكنهم ظنوا أن إمكانية النمو بعد الموت هى جزء من طبيعة بعض الرجال الغرقى، كانت له رائحة البحر، وشكله فقط هو الذى يجعلك تفترض أنه جثة آدمى. لأن الجلد كان مغطى بطبقة من الطين وقشر السمك.

لم يفكروا حتى فى غسل وجهه ليعرفوا أن الرجل الميت غريب. كانت القرية مكونه من عشرين منزلا خشبياً لا غير.

لكل منزل حديقة مبنية من الأحجار وليس بها زهور، وكانت المنازل مبعثرة فى نهاية مساحة شبه صحراوية ممتدة داخل البحر. كانت مساحة الأرض صغيرة حتى أن الأمهات كان يعصف بهن الخوف من أن تحمل الرياح أبناءهن إلى عرض البحر. لكن البحر كان هادئا وكريماً وكل الرجال بخير فى قواربهم السبعة. لذلك فحينما وجدوا الرجل الغريق نظروا ببساطة كل إلى الآخر ليعرفوا أنهم موجودن كلهم.

فى تلك الليلة لم ينزلوا إلى عملهم فى البحر. وبينما ذهب الرجال ليعرفوا إذا ما كان أحد قد اختفى من القرى المجاورة، بقيت النساء ليعتنين بالرجل الغريق. نزعن عنه الطين والأحجار الصغيرة العالقة بشعره كما كشطن قشر السمك من على جسمه بأدوات تنظيف سمك وبينما هن يفعلن ذلك لاحظن أن النباتات العالقة به جاءت من

المحيطات البعيدة ومن الأعماق السحيقة وأن ملابسه كانت بالية كأنه قد أبحر عبر شعب مرجانية. لاحظن أيضا أنه يحمل موته بكبرياء، لم يكن له تلك النظرة الموحشة كباقى الغرقى الذين يلفظهم البحر أو تلك النظرة الشرسة المستغيثة التى يعرفنها عن الرجال الذين يغرقون فى الأنهار. لكنهن لم يدركن أى نوع من الرجال إلا حينما أنتهين من تنظيفه ووقفن مبهورات. كان أطول من رأين من الرجال وأقواهم وأكثرهم رجولة وأحسنهم بنياناً. لكن رغم أنهن كن ينظرن إليه لم يكن له مكان فى خيالهن. لم يستطعن أن يجدن فى القرية سريراً يتسع له ليضعنه عليه أو منضدة متينة تتحمله ليرقد عليها قبل الدفن. سراويل أطول الرجال التى يرتدونها أيام الأجازات لم تكن عن مقاسه، ولا قمصان أكثر الرجال بدانة، ولا أحذية الرجال ذوى أكبر الأقدام حجما. ولما فتن بحجمه الهائل وجماله الأخاذ قررن أن يصنعن له بعض السراويل من قطعة كبيرة من قماش القلوع وقميصاً من الكتان الفاخر حتى يظل بكبريائه أثناء موته. وفيما هن جالسات يخطن الملابس ويحدقن فى الجثة بين غرزة وأخرى بدا لهن أن الرياح لم تكن فى يوم ما أكثر هدوءاً ولم يكن البحر أكثر سكوناً عما كان عليه فى تلك الليلة وافترضن أن هذا التغير فى الجو له صلة بالرجل الميت، وفكرت أن هذا الرجل العظيم لوعاش فى القرية، لكان لبيته أوسع الأبواب وأعلى السقوف، وأقوى الأساس، ولكان هيكل سريره مصنوعاً من هيكل سفينة ومثبتاً بمسامير ضخمة من الحديد، ولكانت زوجته أكثر النساء سعادة. وفكرن أنه لو عاش فى

القرية لكان أكثر الرجال سلطة وقوة حتى أنه يستطيع صيد الأسماك من البحر بمجرد أن يناديها باسمها، ولبذل أقصى ما يمكن من عمل فى أرضه حتى تنفجر فيها الينابيع بقوة بين الصخور فيصبح قادراً على زرع الزهور على المنحدرات الوعرة. وفى السر قارن بينه وبين رجالهن، قائلات لأنفسهن أن رجالهن طوال حياتهم لن يستطيعوا فعل ما يمكنه «هو» أن يفعله فى ليلة واحدة، وانتهين إلى دفن رجالهن فى أعماق قلوبهم كأكثر المخلوقات ضعفاً وخسة وخيبة على وجه الأرض، كن يتجولن فى هذه المتاهة من الخيال حين نظرت أكبر النساء إلى الرجل الغريق نظرة حنو وشفقة أكثر من نظرة حب وولع. وتنهدت قائلة:

«إن له وجه رجل اسمه استيبان»

كان ذلك صحيحاً. معظم النساء نظرن إليه مرة ثانية فقط ليرين أنه لا يمكن أن يحمل أى اسم اخر. أكثر النساء عناداً بينهن، وكانت أصغرهن سناً ظلت لعدة ساعات تعيش فى وهم حين ألبسنه ملابسه ونام بين الزهور ووضع فى قدميه حذاء من الجلد اللامع إذ ذاك تخيلت أن اسمه يمكن أن يكون لوتارو. لكن ذلك كان وهماً لا طائل من ورائه. لم يكن هناك ما يكفى من قماش الأشرعة فكان السروال الذى فصل على عجل وبشكل سىء، ضيقاً جداً، كما أن قوة قلبه الخفية قطعت الأزرار التى فى قميصه. وبعد منتصف الليل سكت صفير الرياح وغرق البحر فى صمت عميق. ووضع السكون نهاية لأى شكوك أخيرة: كان هو استيبان. النساء اللواتى ألبسنه ملابسه

واللائى مشطن شعره، وقصصن أظافره وحلقن له لم يستطعن إمساك أنفسهن عن رجفة الأشفاق حين كان عليهن أن يسلمن بفكرة سحبه ودفنه فى الأرض. لابد أنهن فى هذه اللحظة أدركن كم كان شقياً بهذا الجسم الهائل الذى يسبب له المتاعب حتى بعد موته.

استطعن أن يرينه فى حياته. محكوماً عليه أن يصطدم رأسه وهو يدخل من خلال الأبواب ، وأن يظل واقفا على قدميه أثناء الزيارات لا يدرى ماذا يفعل بيديه الضخمتين واللتين فى لون الورد بينما سيدة البيت تبحث عن أكثرالكراسى صلابة ومتانة وترجوه، وهى مرعوبة حتى الموت، «اجلس هنا يا استيبان. من فضلك» فيرد هو، مستنداً على الحائط، مبتسماً، لا تهتمى يا ماما ، إننى مستريح هكذا لقد تسلخ كعب قدمه وشوى ظهره من تكرار ذلك كلما ذهب لزيارة أحد، لا تهتمى يا أماه. أننى مستريح هكذا.. «ليتجنب الإحراج والارتباك حين يتحطم الكرسى الذى يجلس عليه. وربما لم يكن يعرف أبداً أن الناس الذين يقولون له» لا تذهب يا استيبان.. على الأقل انتظر القهوة «هم نفس الناس الذين يهمسون بعد ذهابه» خيراً ذهب المغفل الضخم، يا لطف الله، أخيراً رحل المغفل الوسيم».

هذا ما كانت تفكر فيه النساء وهن بجوار الجثمان قبل الفجر بقليل. وفيما بعد حين غطين وجهه بمنديل حتى لا يزعجه الضوء، بدا ميتاً إلى الأبد، لا حول له، كرجالهن، حتى أن ينابيع الدموع تفجرت فى قلوبهن. كانت واحدة من النساء صغيرة السن هى التى بدأت البكاء. والباقيات بدأن بالتنهدات ثم انتهين إلى النحيب والنشيج. بدا

لهن أكثر من ذى قبل أن الرجل الغريق هو استيبان ولهذا بكين كثيراً، لأنه كان أكثر الرجال حرماناً ووداعة وكرماً على ظهرالأرض، مسكين يا ساتيبان.

ولهذا فعندما عاد الرجال بالأخبار– أن الغريق لم يكن من القرى المجاورة– أحست النساء بابتهاج شديد وسط دموعهن، وتنهدن «مجداً لله.. أنه ملكنا» وظن الرجال أن كل هذه الجلبة ليست إلا من قبيل طيش النساء. ولما كانوا متعبين كلهم من ليلة التجوال والسؤال فى القرى المجاورة كان كل مطلبهم هو أن يتخلصوا من ذلك القادم الجديد مرة واحدة وإلى الأبد قبل أن ترسل الشمس لهيبها فى ذلك اليوم القائظ. وبسرعة صنعوا محفة من بقايا خشب الصارى ورماح الصيد وربطوها بحبال الأشرعة لتتحمل ثقل الجثمان حتى يصلوا إلى الجرف. أرادوا أن يربطوا معه هلب سفينة حتى يغوص بسهولة إلى أعماق البحرالسحيقة حيث الأسماك العمياء والتيار العنيف الذى لن يعيده إلى الشاطئ كما حدث مع أجساد أخرى . لكنهم كلما تعجلوا فى مهمتهم كلما فكرت النساء فى طرق لتضييع الوقت. كن يسرن كدجاجات خائفات، وعلى صدورهن عقود من أصداف البحر، يلتقطن الفرص للتدخل، بعضهن يضعن وشاحاً على كتفى الغريق لجلب الرياح الطيبة، وبعضهن من الجانب الآخر يضعن بوصلة فى معصم يده، وبعد قدر هائل من عبارات «أفسحى الطريق يا امرأة.. تعالى هنا.. انظرى إنك دائما تجعليني أسقط على الرجل الميت..» بدأ الرجال يشعرون بعدم الثقة وراحوا يشتكون ويتساءلون عن

سبب كل هذه الزينات التى أعدت للميت الغريب وهذا العدد الكبير من قوارير المياه المقدسة الذى وضع فوقه مع أن سمك القرش سيمضغه على أى حال من الأحوال، لكن النساء ظللن يكدسن التذكارات القديمة مع الجثمان، يجرين جيئة وذهابا، ويتعثرن ، بينما ينفسن عن أنفسهم بالتنهدات بدلاً من الدموع، حتى انفجر الرجال آخر الأمر «لم نشهد أبداً مثل هذه الجلبة حول جثة لفظهاالبحر، جثة غريق مجهول، قطعة من اللحم القديم البارد». حينئذ قامت واحدة من النساء ونزعت المنديل عن وجه الرجل الميت وهنا صعق الرجال فوقفوا مقطوعى الأنفاس.

كان هو استيبان . لم يكن ثمة ضرورة لاعادة ذلك أمامهم ليتعرفوا عليه. لا يمكن أنه يوجد سوى استبيان واحد فى العالم وها هو أمامهم ممدودا مثل حوت العنبر عارى القدمين، يرتدى بنطلون طفل صغير، وقد قصت أظافره الحجرية بسكين وما عليهم إلا أن يرفعوا المنديل من على وجهه ليروا أنه خجل، وأنها لم تكن غلطته أنه كان ضخما إلى هذه الدرجة أو وسيما إلى هذه الدرجة ولو علم أن هذا سيحدث لبحث عن مكان أكثر أماناً ليغرق فيه. حقيقة، «كان يجب على أن أربط هلب المركب فى رقبتى وألقى بنفسى من فوق جرف سحيق حتى لا اضايق الناس الآن بهذا الجسد الميت القديم، كما تقولون أنتم أيها الناس، حتى لا أضايق أى واحد بقطعة اللحم الباردة هذه التى لا شأن لهابى». كان ثمة صدق كبير فى سلوكه حتى أن أكثر الرجال شكوكاً ، أولئك الذين أحسوامرارة الليالى

الطويلة فى عرض البحر خائفون من أن تكل نساؤهم من الحلم بهم ويبدأن الحلم برجال غرقى، حتى هؤلاء، حتى هؤلاء وغيرهم الذين كانوا أكثر صلابة أحسوا بالرجفة تسرى داخل عظامهم لدى تذكرهم صدق استبيان.

هكذا جاءوا ليقيموا أكثر الجنازات روعة وفخامة لرجل غريق مخذول. بعض النسوة اللائى ذهبن ليحضرن زهوراً من القرى المجاورة عدن ومعهن نساء أخريات لم يستطعن أن يصدقن الخبر وهؤلاء النساء حين رأين الرجل الميت رجعن لإحضار المزيد من الزهور، وأحضرن الكثير والكثير حتى تكومت أكداس هائلة من الزهور وعدد كبير من الناس بحيث كان من المتعذر التحرك فى المكان. فى اللحظة الأخيرة أحسوا بالألم إذ يعيدوه إلى المياه كشخص يتيم فاختاروا له أبا وأما من أحسن الناس الموجودين، وعمات وأعماماً وأبناء عمومة، وبهذا ، ومن خلاله، أصبح كل سكان القرية أقارب، بعض البحارة الذين سمعوا البكاء من بعد أصابهم الهلع، وسمع الناس عن واحد ربط نفسه فى أعلى الصارى متذكراً القصص القديمة عن كائنات لها رؤوس نسوة وأجساد طيور وتسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك.

وبينما كانوا يتدافعون لحمله على أكتافهم على طول الجرف الشديد الانحدار، تنبه الرجال والنساء لأول مرة لشوارعهم الخربة والمقفرة، وحدائقهم المجدبة، وضيق أحلامهم وهم يواجهون عظمة وجمال رجلهم الغريق. تركوه يذهب دون أن يربطوه بالهلب الحديدى حتى يمكنه العودة إذا شاء ووقتما يشاء، وأمسكوا جميعاً أنفاسهم

لجزء من القرون استغرقه الجسد ليسقط إلى الأعماق السحيقة. لم يكونوا بحاجة لينظر كل منهم إلى الآخر ليتأكدوا أنهم لم يعودوا موجودين، وأنهم لن يكونوا أبداً . لكنهم أيضا يعلمون أن كان شيء سيكون مختلفاً من الآن فصاعداً، ستكون لبيوتهم أبواب أوسع، وسقوف أعلى، وأرضيات أقوى حتى يمكن لذكرى استيبان أن تذهب إلى أى مكان دون أن تصطدم بعوارض الأبواب وحتى لا يجرؤ أحد فى المستقبل أن يهمس بأن الساذج الضخم قد مات أخيراً، هذا تعبير سيء- الساذج الوسيم قد مات أخيراً، لأنهم سوف يطلون واجهات منازلهم بالألوان المرحة ليخلدوا ذكرى استيبان وسوف يكسرون ظهورهم وهم يحفرون بحثاً عن عيون الماء وسط الأحجار ويزرعون الزهور على المنحدرات وبذلك يمكن للمسافرين على البواخر الكبيرة، فى السنوات المقبلة، أن يستيقظوا فى الفجر فينسل عبير الحدائق إليهم فى عرض البحر وسينزل القبطان من سفينته بزيه الكامل ومعه آلته الفلكية لقياس ارتفاع الشمس والنجوم [١] ، ونجمه القطبي، ومجموعة نياشينه، ويشير إلى القمم المزروعة بالورود وسط الأفق، وسوف يقول فى أربع عشرة لغة ، أنظروا هناك حيث الرياح ساكنة وهادئة الآن، لأنهاهاجعة تحت الأسرة، هناك عالياً، حيث تستطع الشمس ببريقها الذهبى حتى أن أزهار الشمس لا تعرف إلى أى طريق تدير وجهها ، نعم ، هناك عالياً، تلك هى قرية ستبيان.

١- الاسطرلاب.

لا يوجد لصوص فى هذه المدينة

عاد داماسو إلى الحجرة مع أول خيوط الفجر. وكانت أنّا(١)، زوجته الحامل فى شهرها السادس، تنتظره جالسة فوق السريرمرتدية ملابسها وحذائها. بدأ مصباح الجاز يذبل. تأكد داماسو أن زوجته كانت تنتظره كل دقيقة خلال الليلة كلها، وحتى الآن فى هذه اللحظة حينما استطاعت رؤيته أمامها، كانت ماتزال تنتظر. أومأ إليها متسائلا لكنها لم ترد. ثبتت عينيها المرعوبتين على صرة الملابس الحمراء التى كان يحملها فى يده، زمت شفتيها، وبدأت ترتعش أمسك بها داماسو من قميصها بعنف صامت. كانت تنبعث منه رائحة نفاذة.

تخلصت أنّا من قبضة يده. ثم ألقت جسدها بكل ثقله للأمام تبكى على صدر زوجها الذى كان يرتدى قميص فانلة أحمر مخططاً،

ثم تشبثت بوسطه إلى أن بدأت تهدأ. قالت:

«نمت وأناجالسة، فجأة فُتح الباب ودُفع بك إلى داخل الحجرة غارقاً فى دمائك».

أمسك دامسو بذراعها دون كلمة، أجلسها على السرير مرة أخرى. ثم وضع الصرة فى حجرها وخرج إلى فناء البيت ليتبول.

حلت رباط الصرة ورأت بها ثلاث كرات بلياردو، أثنتين بيضاوين وواحدة حمراء، كانت كلها قاتمة اللون ورثَّة من كثرة الاستعمال حين عاد دامسو إلى الحجرة وجدها غارقة فى التفكير.

سألته أنًا : «وما فائدة هذه؟»

هز كتفيه وقال:

«للعب البلياردو».

ربط الصرة ثانية ووضعها مع المفتاح الماستر (الذى يفتح كل الأقفال)، والبطارية، والسكين.. وضعها جميعاً فى قاع صندوق الملابس. رقدت أنا فى مواجهة الجدار وخلعت ملابسها خلع داماسو سرواله فقط، تمدد على السرير، حاول وهو يدخن فى الظلام أن يجمع تفاصيل مغامرته فى ذلك الفجر، حتى تأكد أن زوجته قد استيقظت.

– «فيما تفكرين؟»

قالت:

– « لا شىء»

بدا صوتها، وهو صوت عميق فى حالاته الطبيعية، بدا حاداً

بسبب غضبها جذب داماسو نفساً أخيراً من السيجارة ثم سحق العقب على الأرض الترابية.

تنهد قائلا:

«لم يكن هناك شىء آخر. ظللت بالداخل حوالى ساعة»

قالت:

«كان يمكن أن يطلقواعليك النار».

ارتعش داماسو. قال وهو ينقر بأصابعه على أطراف السرير:

«اللعنة». راح يبحث بيديه عن السجائر والكبريت على أرضية الغرفة.. قالت أنا:

«إن إحساسك إحساس حمار».

كان يجب أن تتذكر أننى هنا، غير قادرة على النوم، متخيلة أنهم جاءوا بك ميتاً كلما سمعت ضجة فى الشارع»، ثم أضافت وهى تتنهد:

«وكل هذا ينتهى على ثلاث كرات بلياردو».

– «لم يكن ثمة شىء بالدرج سوى خمسة وعشرين سنتاً».

– «إذن كان عليك ألا تأخذ شيئاً».

– كان أصعب ما فى الأمر أن أصل إلى الداخل.. ولم أستطع أن أعود خاوى اليدين».

– كان يمكنك أن تأخذ شيئا آخر».

–«لم يكن يوجد شىء آخر».

– «لا توجد أماكن بها أشياء عديدة مثل قاعات البلياردو».

– «ويبدو لك هذا، ولكنك عندما تكونين بالداخل تبدأين بالنظر إلى الأشياء وتبحثين فى كل مكان ثم تتحققين أنه لا يوجد شيء يستحق أى شيء».

ظلت صامتة لوقت طويل.

تخيلها داماسو بعينيها المفتوحتين، تحاول أن تجد موضوعاً ذا قيمة فى ظلمة الذاكرة.

«ربما» قالت أنًا.

أوقد داماسو النور مرة أخرى. كان الخمر ينسل منه فى موجات مركزة، وأحس مرة أخرى بثقل ، وحجم أوصاله. قال «كانت هناك قطة، قطة بيضاء هائلة الحجم» تلفتت أنًا حولها، ضغطت ببطنها على بطن زوجها ، ووضعت ساقها بين ركبتيه. كانت تفوح منها رائحة البصل.

– «هل كنت خائفا جدا؟»

– أنا؟»

– «أنت ، يقولون أن الرجال أيضا يصيبهم الخوف».

أحس بابتسامتها، وابتسم هو قال :«قليلا» كان لابد أن أتبول، ولم استطع التوقف عن هذا «تركها تقبله دون أن يرد قبلاتها. ثم ، وقد وعى المخاطر التى مر بها، ولكن دون ندم، وكأنما يسترجع ذكريات رحلة، أخبرها بتفاصيل مغامرته.

تكلمت بعد صمت طويل:

«هذا جنون».

قال داماسو وهو يغمض عينيه:

«ولكن هذا لا يعتبر شيئاً جداً باعتباره أول تجربة».

تأخرت حرارة الشمس فى المجئ. عندما استيقظ داماسو كانت زوجته قد استيقظت منذ برهة. وضع رأسه تحت الصنبور فى فناء البيت وتركهاعدة دقائق حتى صار يقظا تماماً. كانت الحجرة جزءاً من سوق مكون من حجرات متشابهة ومنفصلة ، لها فناء مشترك تعترضه حبال الغسيل. فى مواجهة الحائط الخلفى أقامت أنًا فرنا متنقلا للطبخ ولتسخين مكواتها، ومنضدة صغيرة للأكل والكى. عندما رأت زوجها يقترب وضعت الملابس المكوية جانباً وأخذت المكواة من الفرن وسخنت القهوة. كانت أكبر منه سناً، بشرتها شاحبة للغاية، وحركاتها تمتاز بالهدوء والثبات شأن الذين تعودوا على الواقع.

أدرك داماسو من خلال غيمة الصداع التى تلف رأسه أن زوجته تريد أن تقول له شيئاً بنظرتها. حتى ذلك الوقت لم يكن قد أعارانتباهاً للأصوات التى فى الفناء.

غمغمت أنًا وهى تعطيه القهوة «طوال هذا الصباح لم يكونوا يتحدثون فى شيء آخر. منذ قليل ذهب الرجال إلى هناك».

رأى داماسو بنفسه أن الرجال والأطفال قد اختفوا من الفناء. وبينما كان يشرب قهوته أنصت متتبعاً حديث النساء اللائى كن ينشرن ملابسهن فى الشمس. وأخيراً أشعل سيجارة وترك المطبخ.

نادى : «تيريزا»!

ردت على ندائه فتاة ملابسها مبتلة وملتصقة بجسمها. غمغمت أنًا «خذ بالك» جاءت الفتاة، سألها داماسو «ما الذى يحدث؟ «قالت الفتاة» شخص ما اقتحم صالة البلياردو وأخذ كل شيء».

بدا أنها تعرف كل التفاصيل. شرحت كيف أن اللصوص قد سرقوا المكان كله، قطعة قطعة، حتى مائدة البلياردو حملوها معهم. كانت تتحدث باقتناع تام حتى أن داماسو لم يصدق أن هذا كذب.

«خراء»! قال وهو عائد إلى المطبخ.

راحت أنًا تغنى بين أسنانها المطبقة. مال داماسو بكرسى على حائط لفناء ، محاولاً أن يكبت قلقه. منذ ثلاثة شهور، عندما بلغ سن العشرين، كان خط شاربه الذى يشى باحساس خفى بالتضحية وأيضا بنوع من الرقة، قد أضاف لمسة من النضج إلى وجهه الذى يحمل آثار الجدرى. منذ ذلك الحين بدأ يحس كأنه شخص رائد. لكن هذا الصباح، بذكريات الليلة السابقة التى تطفو على مستنقع صداعه، لم يستطع أن يعرف من أين يبدأ الحياة.

حين انتهت أنًا من المكوة وضعت الملابس النظيفة فى كومتين متساويتين واستعدت للخروج.

قال دامسو: «لا تتأخرى».

– «عادى».

تبعها إلى داخل الغرفة. قالت أنًا «تركت قميصك المربعات هناك. من الأفضل ألا ترتدى القميص المخطط مرة أخرى». واجهت عينى زوجها الصافيتين كعينى قط. «لا تعلم إذا كان أحدهم قد رآك أم

لا».

جفف داماسو عرق يديه على سرواله.

«لم يرنى أحد».

«لا تعرف» كررت أنًا. كانت تحمل كومة ملابس على كل ذراع».. وأيضاً من الأحسن لك ألا تخرج. انتظر حتى أتجول قليلاً هناك كما لو أنى غيرمهتمة».

فى المدينة لم يكن للناس حديث آخر. وكان على أنًا أن تنصت إلى تفاصيل نفس الحادث مرات عديدة، فى روايات مختلفة ومتناقضة. وعندما انتهت من تسليم الملابس، وبدلاً من الذهاب إلى السوق كماتفعل كل يوم سبت، ذهبت رأساً إلى الميدان.

وجدت أمام قاعة البليارد عدداً من الناس أقل مما كانت تتصور. بعض الرجال كانوا يتحدثون فى ظل شجر اللوز. وفرش السوريون ملاءاتهم الملونة ليتناولوا الغذاء، وبدت الدكاكين ناعسة تحت المظلات الملونة. وكان رجل ينام متمدداً على كرسى هزاز فى ردهة الفندق وقد انفرجت شفتاه وقدماه. كل شيء كان سكانا فى قيظ الظهيرة.

واصلت أنًا سيرها بجوار قاعة اللعب، وحين مرت بالأرض الفضاء المواجهة لرصيف السفن وجدت الجمع. ثم تذكرت شيئا كان داماسو قد اخبرها به ، شيئاً بمعرفة كل الناس ولكن زبائن المكان فقط يمكن أن يتذكروه: الباب الخلفى للقاعة المواجهة للأرض الفضاء.

بعد دقيقة اختلطت بالجمهور، وكانت تضع ذراعيها حول بطنها

وعيناها مثبتتان على الباب الذى كسر. كان القفل سليما لم يمس ولكن واحدة من الرزات كانت قد خلعت مثل سنه. للحظة تأملت أنًّا التحطيم الذى تسبب عن المجهود الفردى والمتواضع وفكرت فى زوجها باحساس من الشفقة.

سألت «من الذى فعل هذا؟» ولم تجرؤ على النظر حولها.

أجابوها «لا أحد يعرف. يقولون غريب».

قالت امرأة خلفها «لابد أنه كذلك ، فلا يوجد لصوص فى هذه المدينة. كل واحد يعرف الآخر».

إدارت أنًّا رأسها «هذا صحيح» قالت وهى تبتسم. كانت مغطاة بالعرق. وكان ثمة رجل عجوز جداً بجانبها تبدو التجاعيد واضحة خلف رقبته.

سألت «هل أخذوا كل شىء؟»

«مائتى بيزو، وكرات البلياردو». أجاب الرجل العجوز. نظر إليهاباهتمام غيرعادى: «سرعان ما يتوجب علينا أن ننام وعيوننا مفتوحة.

نظرت أنًّا بعيداً وقالت مرة ثانية «هذا صحيح» ووضعت قطعة قماش على رأسها وصارت تعدل من وضعها دون أن نستطيع التخلص من الأحساس بأن الرجل ما زال ينظر إليها. لمدة ربع ساعة كان الحشد الذى تجمع يتصرف باحترام، كما لو كان هناك ميت خلف الباب المكسور. ثم سرعان ما دب القلق بينهم فاستداروا وتدفقواعلى الميدان.

كان مالك قاعة اللعب عند مقدمة الباب مع العمدة واثنين من رجال البوليس، كان قصيراً ممتلئاً لا يمسك بنطلونه سوى ضغط كرشه، يضع نظارة مثل تلك التى يضعها الأطفال، بدا المالك وكأنه قد وهب كرامة وكبرياء لا حدود لهما.

أحاط به الحشد وانصتت أنًّا وهى مستندة إلى الحائط إلى تقريره حتى بدأ الجمهور فى الانصراف. ثم ، وقد ضايقهاالقيظ، عادت إلى غرفتها بينما كان الجيران فى شبه مظاهرة صاخبة.

ممدداً على السرير، سأل داماسو نفسه عدة مرات كيف حاولت أنًّا أن تنتظره الليلة السابقة دون تدخين. حين رآها تدخل مبتسمة وهى ترفع من على رأسها قطعة القماش المبتلة بالعرق ألقى بالسيجارة التى لم يدخن منها إلا القليل على الأرض وسحقها بين أعقاب السجائر المتراصة وانتظر بقلق متزايد.

«حسن؟».

ركعت أنًّا أمام السرير وقالت:

«حسن، إلى جانب انك لص، فأنت كذاب».

– لماذا؟

– لأنك قلت لى أنه لم يكن هناك شىء فى الدرج.

– لم يكن هناك شىء.

– كانت هناك مائتا بيزو

– «هذا كذب» أجابها داماسو رافعاً صوته. جلس على السرير واستعاد صوته الملئ بالثقة «كان يوجد فقط خمس وعشرون سنتاً».

أقنعها. قال داماسو وهو يلوح بقبضتيه «إنه نصاب عجوز، إنه يدفعنى لأحطم وجهه» ضحكت أنَّا بصوت عال:

«لا تكن غبياً»

ضحك هو الآخر بصوت عال وبينما كان يحلق ذقنه أخبرته زوجته بما استطاعت أن تكشفه كان البوليس يبحث عن غريب. «قالوا أنه وصل يوم الخميس وأنهم رأوه الليلة الماضية يتجول حول المكان «قالت» يقولون إنهم لا يستطيعون العثورعليه فى أى مكان».

فكرداماسو فى الغريب الذى لم يره فى حياته، للحظة كان مقتنعاً تماماً بقصة هذاالغريب.

قالت أنَّا: «ربما هرب».

كعهده دائما، كان داماسو يحتاج إلى ثلاث ساعات ليرتدى ملابسه. أول شيء راح يهذب شاربه. ثم الاستحمام تحت الصنبور فى الباحة. تابعت أنَّا خطوة بخطوة عملية تمشيط شعره الشاقة. تابعتها باهتمام لم يتناقص منذ أن رأته أول ليلة. حين رأته ينظر إلى نفسه فى المرآة قبل أن يخرج بقميصه الأحمر، أحست أنَّا أنها عجوز مبهدلة. راح داماسو يتراقص أمامها بخفة ملاكم محترف. أمسكت به من رسغيه.

«هل معك أى نقود؟»

أجاب داماسو بمرح «أناغنى، لقد أخذت المائتي بيزو».

اتجهت أنَّا صوب الحائط واخرجت من صدرها رزمة من الأوراق المالية وأعطت بيزو لزوجها وهى تقول:

«خذه يا فالنتينو».

فى تلك الليلة كان داماسو فى الساحة مع جماعة من أصدقائه. كان الناس الذين قدموا من الريف لبيع بضائعهم فى سوق الأحد ينصبون مظلاتهم بين الأكشاك التى تبيع المقليات الفرنسية وأوراق اليانصيب،ومن بداية المساء يمكنك أن تسمع شخيرهم.

لم يكن أصدقاء داماسو مهتمين بالمرة بأمر السرقة التى حدثت فى قاعة اللعب قدراهتمامهم باذاعة مباراة البطولة فى البسبول التى لم يستطيعوا سماعها تلك الليلة لأن قاعة اللعب كانت مغلقة وفيما هم يتحدثون عن البسبول ذهبوا إلى السينما دون اتفاق مسبق ودون معرفة الأفلام التى تعرض.

كانوا يعرضون فيلماً كوميدياً لكانتنفلاس [1].

فى الصف الأول من البكلون كان داماسو يضحك بلا خجل. أحس كأنه يتطهر من انفعالاته. كانت أمسية جميلة من أمسيات شهر يونيو، وفى لحظات اختفاء الصور، حين لا ترى سوى الضباب المشع الصادر عن آلة العرض، كان صمت النجوم يلقى بثقله على المسرح المفتوح.

فجأة صارت الصورعلى الشاشة معتمة وكانت هناك جلبة فى نهاية الصالة. وفى سطعة النورالمفاجئ أحس داماسو أن أمره قد اكتشف، وأنه متهم، وحاول الجرى. لكنه مباشرة رأى الجمهور فى الصالة يجمد فى مكانه وشرطى حزامه ملفوف حول وسطه، يضرب رجلا ضرباً مبرحاً بالقايش ذى الأبزميم النحاس الثقيل. كان الرجل

زنجياً عملاقاً. بدأت النساء تصرخ وزعق الشرطى، الذى كان يضرب الزنجى، فى النساء «حرامى، حرامى». هرول الزنجى بين صفوف المقاعد يطارده شرطيان كانا يضربانه على جنبيه حتى أمسكا به من الخلف ثم قام الشرطى الذى جلده بتقييد معصميه خلف ظهره بحزام جلد، ودفعه ثلاثتهم نحو الباب. حدث ذلك بسرعة مذهلة حتى أن داماسو لم يفهم ما حدث إلا عندما مرالزنجى بجواره، قميصه ممزق ووجهه ملطخ بخليط من التراب والعرق والدم، وكان يتمتم باكياً «قتله ، قتله». ثم أداروا جهاز العرض واستمر الفيلم.

لم يضحك داماسو ثانية. رأى نتفاً من قصة غير مترابطة، وحلقات الدخان، حتى أضيئت الأنوار ونظر المتفرجون إلى بعضهم البعض كما لو كانوا مرعوبين من الواقع« كان هذا جيداً» أوضح أحد الواقفين بجواره لم ينظر داماسو تجاهه.

قال :«كانتفيفلاس رائع» حمله الزحام إلى الباب. كان باعة الطعام المتجولون، محملين بالسلال، فى طريقهم إلى بيوتهم . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، لكن كان ثمة كثير من الناس فى الشارع ينتظرون الخارجين من السينما ليعرفوا منهم قصة القبض على الزنجى.

فى تلك الليلة دخل داماسو الحجرة على أطراف اصابعه حتى أن زوجته أنًا التى كانت نصف نائمة حين أحست به كان يدخن سيجارته الثانية ممداً على السرير.

«الطعام على الموقد».

تنهدت أنا: «حلمت أن نوراً تعمل عرائس من الزبد» قالت دون أن تنهض، فجأة تحققت أنها راحت فى النوم دون إرادتها، واستدارت صوب داماسو وحملقت وهى تدعك عينيها.. قالت:

«لقد قبضواعلى الغريب».

انتظر داماسو قبل أن يتكلم:

«من قال؟».

ردت أنًا: «أمسكوه فى السينما، كل الناس هناك».

وحكت رواية مشوهة عن القبض. ولم يصحح داماسو كلامها.

تنهدت أنًا: «يا له من رجل مسكين!».

احتج داماسو بكراهية:

«مسكين لماذا؟ إذن فكنت تفضلين أن أكون أنا الذى وقعت فى أيديهم» كانت تعرفه جيداً وتعرف كيف تجيبه. أحست به يدخن، يتنفس مثل مريض الربو، حتى أول خيوط الفجر. ثم أحست به خارج السرير يقلب الغرفة رأسا على عقب فى ملاحقة غامضة وبدا أنه يعتمد على اللمس أكثر من البصر. ثم أحست به يكشط الأرض تحت السرير لأكثر من ربع ساعة، ثم وهو يخلع ملابسه فى الظلام، محاولاً ألا يحدث ضجة، دون أن يتحقق من أنها لم تتوقف عن مساعدته بأن جعلته يظن أنها نائمة. تحرك شىء ما فى حواسها المغرقة فى البدائية، عرفت أنًا الآن أن دامسو كان فى السينما، وفهمت لماذا دفن لتوه كرات البليارد تحت السرير.

فتحت قاعة اللعب يوم الأثنين وأمهاالزبائن.

كانت مائدة البليارد قد غطيت بقماش ارجوانى أضفى على المكان جوا جنائزياً. علقت على الحائط ورقة كتب عليها «لا كرات، لا بليارد» جاء الناس ليقرأوا هذه الورقة كأنها أخبار . بعضهم وقف أمامها مدة طويلة، يقرأها فى ورع غامض.

كان داماسو بين الزبائن الأول. لقد أنفق جزءاً من حياته على المقاعد التى رصت على الجانبين للمتفرجين وكان هناك منذ اللحظة التى فتحت فيها الأبواب. كان أمرا صعباً لكنه تلقاى كواجب العزاء. ربت على ظهرصاحب المحل عبرالكاونتر، وقال:

«يا له من أمر مؤلم يا روك».

هز صاحب المحل رأسه بابتسامة صغيرة مرسومة، وتنهد قائلا:

«هذا صحيح». وظل فى انتظارالزبائن بينما راح داماسو معتمداً على واحد من كراسى الكاونتر، يرقب المائدة الشبحية تحت كفنها الأرجوانى.

قال« يا له من أمرغريب».

«هذا لصحيح»، وافق رجل على المقعد المجاور يبدو وكأننا فى الأسبوع المقدس».

عندما ذهبت غالبية الزبائن لتناول الغذاء وضع داماسو قطعة نقود فى صندوق الفوتوغراف والتقط اسطوانة لغنية مكسيكية يحفظها عن ظهرقلب.

كان روك ينقل المناضد والكراسى إلى نهاية الصالة.

سأل داماسو: ماذا تفعل؟

أجاب روكك إنى أرتب المكان للعب الورق. يجب أن أفعل شيئاً حتى تأتى الكرات.

كان يتحرك فى تردد ممسكا بكرسى فى كلتا يديه فبدا مثل أرمل فقد زوجته مؤخراً.

سأل داماسو: «ومتى ستأتى الكرات؟»

- «خلال شهرعلى ماأرجو»

قال دامسو: «فى هذه الأثناء ستظهرالكرات الأخرى مرة ثانية».

ألقى روك نظرة ارتياح على صف المناضد الصغيرة، وقال وهو يجفف جبهته بكمه «لن تظهرثانية، إنهم يعذبون الزنجى بمنع الطعام عنه منذ اسبوع ومع ذلك فهو يرفض أن يقول أين الكرات». ثم رمق داماسو بنظرة من خلال نظارته المغبشة بفعل العرق. «أنامتاكد أنه ألقاها فى النهر».

عض داماسو على شفتيه.

- «والمائتا بيزوس؟»

أجاب روك «وهى أيضاً. لم يجدوا معه سوى ثلاثين».

تلاقت نظراتهما. لم يستطع دامسو أن يفهم سر انطباعه بأن هذه النظرة أقامت بينه وبين روك علاقة اشتراك فى الجريمة. فى ذلك المساء رأته أنًا، وهى فى المغسلة، عائدا إلى البيت يرقص مثل ملاكم. تبعته إلى الحجرة.

قال داماسو: « كل شىء على ما يرام. الرجل العجوز مستسلم

تماماً حتى أنه طلب شراء كرات جديدة. الآن هى مجرد مسألة انتظار حتى ينسى الجميع».

- «والزنجى؟»

أجابها داماسو هازاً كتفيه «لا شىء. إذا لم يجدوا الكرات فسوف يكون عليهم أن يطلقوا سراحه».

بعد الأكل، جلسا خارج الباب الأمامى وكانا يتحدثان مع الجيران حتى سكت مكبر الصوت فى السينما. وعندما ذهبا إلى الفراش، كان داماسو منفعلاً. قال:

«شىء مروع حدث لى»

إيقنت أنًا أنه كان يقلب الفكرة فى رأسه منذ الغسق.

واصل داماسو كلامه قائلا «سأسافر من مدينة إلى مدينة. أسرق كارت البلياردو من مدينة وأبيعها فى المدينة التالية. كل مدينة فيهاقاعة للعب.

-« حتى يردوك قتيلا»

- «قتل، أى قتل؟ إنك ترين هذا فى السينما فقط». مزروعا فى وسط الغرفة، كان يكتم حماسه.

أخذت أنًا تخلع ملابسها، وبدت غير مبالية، ولكنها فى الحقيقة كانت تنصت له باهتمام ممزوج بالشفقة.

«سأشترى صفا من البدل» قال داماسو مشيراً إلى دولاب خيالى بطول الحائط. من هنا إلى هنا. وكذلك خمسين زوجاً من الأحذية.

قالت أنًا «إن شاء الله»

حدجها داماسو بنظرة جادة:

- «أنت لست مهتمة بشئونى».

- «إنها بعيدة كل البعد عنى».

قالت أنًا هذا ثم أطفأت المصباح، ورقدت بجوار الحائط، وأضافت بمرارة واضحة، «عندما تبلغ الثلاثين سأكون أنا فى السابعة والأربعين من عمرى».

قال دامسو« لا تكونى سخيفة» تحسس جيوبه بحثا عن الكبريت» سوف ترتاحين من غسيل الملابس أيضاً.

قال هذابنوع من الارتباك اشعلت أنًا له عود ثقاب. نظرت إلى اللهب حتى احترق عود الثقاب وألقته على الأرض. تمددت على السرير، وواصل داماسو حديثه:

«هل تعرفين مما تُصنع كرات البليارد؟».

لم تجب أنًا. واصل هو كلامه «من أنياب الفيل، من الصعب الحصول عليها، حتى أنه يلزم شهر لتأتى. هل تتصورين؟».

قاطعته أنًا: «أذهب لتنام، يجب أن أصحو فى الخامسة».

كان داماسو قد عاد لحالته الطبيعية. أمضى الصباح فى السرير يدخن، وبعد القيلولة بدأيستعد للخروج فى الليل استمع من الراديو إلى إذاعة مبارة البطولة فى البسبول فى قاعة اللعب. كانت لديه القدرة لنسيان مشروعاته بنفس الحماس الذى دفعه للتفكير فيها.

فى يوم السبت سأل زوجته «هل لديك أية نقود؟ «أجابت: «إحدى عشر بيزو» ثم أضافت بهدوء «إنها الإيجار».

- «سأعقد معك صفقة».
- «ماذا؟»
- «إقرضيني إياها».
- «لا بد أن ندفع الإيجار»
- سندفعه فيما بعد».

هزت أنًا رأسها: أمسك داماسو بمعصمها ومنعها من النهوض من جانب المنضدة حيث تناولا تواً طعام الإفطار. قال وهو يربت ذراعها برقة شتتت وعيها «عندما أبيع الكرات سيكون لدينا نقود تكفي لكل شيء».

لم تستسلم أنًا.

فى تلك الليلة أخذهاداماسو إلى السينما ولم يرفع يده عن كتفهاحتى عندما كان يتكلم مع أصدقائه أثناء الاستراحة. رأيا نتفاً من الفيلم. وعندما انتهى، كان داماسو نافذ الصبر.

قال «إذن على أن أسرق النقود».

هزت أنًا كتفيها. قال داماسو وهو يدفعها وسط حشد الناس الخارجين من السينما: سأضرب أول شخص أجده بهراوة حينئذ سيأخذونني إلى الحبس بتهمة القتل».

ابتسمت أنًا فى داخلها. لكنها بقيت جامدة. فى الصباح التالى، بعد ليلة عاصفة، ارتدى داماسو ملابسه فى سرعة ملحوظة ومنذرة بالسوء. مر قريباً من زوجته ودمدم:

«لن أعود أبداً».

لم تستطع أنًا أن تقاوم رجفة خفيفة ألمت بها.

صاحت فيه «أتمنى لك رحلة طيبة!»

بعد أن صفق الباب بدأ يوم أحد فارغ وبلا نهاية بالنسبة لداماسو. فى السوق العامة.

أضفت الأوانى الفخارية اللامعة والنساء ذوات الملابس الزاهية اللائى كن خارجات مع أطفالهن من قداس الساعة الثامنة، أضفت لمسة سعادة على الميدان، لكن الهواء كان قد بدأ يقل بفعل الحرارة.

أنفق اليوم فى قاعة اللعب. كانت مجموعة من الرجال يلعبون الورق فى الصباح، وقبل الغذاء دخل عدد قليل من الزبائن . لكن كان واضحاً أن المحل قد فقد جاذبيته . فقط عند الغسق، وحين بدأ يذاع برنامج البيسبول، استعاد جزءاً من حركته القديمة.

بعد أن أغلقوا القاعة، لم يجد داماسو مكاناً يذهب إليه فى الميدان الذى بدا الآن خاوياً. سار فى الشوارع المتوازية المؤدية إلى الميناء، متتبعاً صوت موسيقى مرحة قادمة من بعيد. فى نهاية الشارع كانت ثمة صالة رقص كبيرة وخاوية ومكسوة بأكاليل من الورق الذابل، وفى مؤخرة القاعة ثمة فرقة موسيقية على منصة خشبية. كانت رائحة الماكياج الخانقة تغطى المكان.

جلس داماسو على البار، وعندماانتهت المقطوعة الموسيقية راح الصبى الذى لعب على الصاجات فى الفرقة يجمع النقود من الرجال الذين كانوا يرقصون. تركت فتاة شريكها فى وسط القاعة واقتربت من داماسو. «ما الأخبار يا فالينتينو؟» قدم لها داماسو كرسياً

بجانبه.

جاء الساقى وقد غطت وجهه المساحيق وزهرة قرنفل على أذنه وسأل بصوت متكلف:

- «ماذا تشربان؟»

اتجهت الفتاة نحو داماسو.

- «ماذا سنشرب؟»
- «لا شىء».
- «على حسابى».

قال داماسو: «ليس هذا قصدى.. إنى جوعان».

«مسكين!» تنهد الساقى «بهاتين العينين».

ذهبا إلى حجرة الطعام فى نهاية القاعة. بدت الفتاة بجسدها المشوق شابة للغاية، لكن طبقة المسحوق والأحمر والطلاء على شفتيها جعل من الصعب معرفة عمرها الحقيقى. بعد أن تناولا الطعام، تبعها داماسو إلى حجرة خلف الساحة المعتمة حيث كان بامكانهما اسماع تنفس الحيوانات النائمة. كان السرير مشغولاً وكان ثمة طفل مغطى بمزق ملونة. وضعت الفتاة المزق فى صندوق خشبى، ثم وضعت الطفل داخله، ثم وضعت الصندوق على الأرض.

قال داماسو:

- «ستأكله الفئران»

«لا، لن تأكله»

غيرت فستانها الأحمر وارتدت آخر له فتحة صدر أوسع وبه

زهور صفراء.

سأل داماسو:

- «من الأب؟»
- «ليس عندى أى فكرة». ثم أضافت وهى عند الباب «سأعود حالاً!».

سمعها تغلق الباب. دخن عدة لفافات ، تمدد على ظهره بملابسه. اهتزت يايات السرير. لم يدر متى نام. حين استيقظ ، بدت الحجرة أكبر فى غياب الموسيقى. كانت الفتاة عارية بجوار السرير.

«كم الساعة؟»

- «حوالى الرابعة» أجابت الفتاة « هل بكى الطفل؟»
- «لا أظن». أجاب داماسو.

استلقت الفتاة لصقه، وهى تمعن النظر فيه، استدارت قليلاً فيما هى تفك أزرار قميصه. أيقن داماسو أنها شربت كثيراً. حاول أن يطفئ النور.

- «دعه لا تطفأه.. أحب أن أنظر فى عينيك».

منذ الفجر فصاعداً امتلأت الحجرة بالضوضاء. بكى الطفل . أخذته البنت إلى السرير وأرضعت . وهى تهمهم له بأغنية حتى ناموا جميعاً. لم يلحظ داماسو أن الفتاة استيقظت حوالى السابعة، تركت الحجرة، ثم عادت بدون الطفل.

قالت «كل الناس ذاهبة إلى الميناء». أحس داماسو كما لو أنه لم ينم أكثر من ساعة واحدة طوال الليل.

– «لماذا؟»

«ليروا الزنجى الذى سرق الكرات، سير حلونه اليوم».

أشعل داماسو سيجارة.

« يا له من مسكين» تنهدت الفتاة.

«لماذا مسكين؟» سأل داماسو.

«أن أحداً لم يجعله لصاً».

فكرت الفتاة للحظة ورأسها على صدره، وبصوت خافت للغاية قالت:

– «لم يكن هو الذى سرق»

– «من قال ذلك؟»

– «اعرف هذا. فى الليلة التى اقتحم فيها اللصوص قاعة اللعب، كان الزنجى مع جلوريا، وأمضى اليوم التالى كله فى حجرتها، تقريباً حتى حلول الليل، ثم جاؤ وا ليقولوا أنهم قد ألقوا القبض عليه فى السينما».

– «جلوريا تستطيع أن تقول ذلك للشرطة».

– «النزنجى قال لهم ذلك. العمدة ذهب إلى جلوريا وقلَبَ حجرتها رأساً على عقب، وقال أنه كان سيأخذها إلى الحبس كشريك فى الجريمة. وأخيراً ينتهى الأمر إلى عشرين بيزو».

استيقظ داماسو قبل الثامنة. قالت الفتاة «إبق هنا، سوف أذبح دجاجة للغذاء».

ضرب دامسو المشط فى راحة يده قبل أن يضعها فى جيبه

الخلفى. «لا استطيع» قال وهو يمسك بالفتاة من رسغيها ويديرها ناحيته. لقد غسلت وجهها ، وكانت حقاً صغيرة جداً، لها عينان سوداوان كبيرتان. لفت ذراعيها حول وسطه.

«إبق هنا». أصرت

– «إلى الأبد؟».

اكتسى وجهها بحمرة خفيفة، وانسحبت.

قالت: «مهرج».

كانت أنًا منهوكة القوى فى هذاالصباح، لكن ضجة المدينة وهياجها كانت للصقها. بأسرع من المعتاد جمعت ملابس الغسيل لذلك الأسبوع وذهبت إلى الميناء لتشاهد رحيل الزنجى. كان ثمة حشد نافذ الصبر ينتظر قرب القوارب البخارية التى كانت مستعدة للإبحار ،كان هناك. لكزته أنا بأصابعها فى جنبه.

«ماذا تفعلين هنا؟ سأل داماسو فزعاً.

– «جئت لأودعك».

– «عليك اللعنة».

بعد أن اشعل سيجارة رمى العلبة الفارغة فى النهر.

أخرجت أنًا علبة أخرى من قميصها ووضعتها فى جيب قميصه.

ابتسم داماسو للمرة الأولى. قال:«لن تتعلمى أبداً».

ضحكت أنًا.

بعد قليل وضعوا الزنجى فى القارب. أخذوه عبر الميدان، ورسغاه مقيدان خلف ظهره بحبل يمسك به رجل شرطة. اثنان آخران من

رجال الشرطة مسلحان بالمسدسات مشياً إلى جواره. كان بلا قميص ، شفته السفلى مدلاة، وأحد حاجبيه مرتفع ، مثل ملاكم. على باب قاعة اللعب ، حيث تجمع الجانب الأكبر من الجمهور يشهد نهاية العرض، شهده المالك يمر وهو يهز رأسه فى صمت والباقون لاحظوه بنوع من الشغف.

انطلق الزورق البخارى بغتة . كان الزنجى على سطحه ، ويداه وقدماه مقيدة إلى برميل زيت. وعندما استدار الزورق فى وسط النهر وأطلق صفارته الأخيرة، بدا ظهرالزنجى للجمهور.

«يا للرجل المسكين». همست أنا. قال شخص بجانبها «مجرمون، أى إنسان لا يستطيع تحمل مثل هذه الشمس».

حدد داماسو مكان الصوت القادم من امرأة مفرطة السمنة بشكل غيرعادى، وبدأ يسير صوب الميدان. همس فى أذن أنا «إنك تتكلمين كثيراً. والآن ماعليك إلا أن تصرخى وتحكى القصة كلها». صحبته إلى باب قاعة اللعب.

قالت له وهى تغادره: «على الأقل إذهب إلى البيت لتغير ملابسك. إنك تبدو مثل الشحاذين».

دلف جمع من الجمهورالمستثار الذى شهد ما حدث إلى قاعة اللعب. حاول روك أن يلبى طلباتهم جميعاً فكان يخدم عدة موائد فى وقت واحد.

انتظر داماسو حتى مر بجانبه:

«هل تريد مساعدة؟»

وضع روك ست زجاجات بيرة أمامه مع أكواب مقلوبة.

- « شكراً يا بنى».

أخذ داماسو الزجاجات إلى الموائد. تلقى عدة طلبات من الزبائن، واستمر فى تلقى الطلبات واحضار الزجاجات حتى غادر الزبائن المكان لتناول الغذاء. فى الصباح الباكر، حين عاد إلى الحجرة، تحققت أنًا أنه كان شرب.

أخذت يده ووضعتها على بطنها.

قالت «هنا، ألا تحس به؟»

لم يبد داماسو أى بادرة حماس.

قالت أنا: «انه يرفس الآن. إنه يقضى الليل كله يرفسنى رفسات صغيرة بالداخل».

لكنه لم يبد أى رد فعل . مركزاً اهتمامه على نفسه، خرج مبكراً فى اليوم التالى ولم يعد حتى منتصف الليل. مر أسبوع على هذا الحال. فى اللحظات القليلة التى أمضاها فى البيت، مدخنا فى السرير، تجنب المحادثة. ركزت أنًا انتباهها فى بداية حياتهما معاً، وفى مناسبة معينة، كان يسلك بنفس الطريقة. وحينئذ لم تكن قد عرفته بما فيه الكفاية كى لا تضايقه، فى السرير فتح ساقيها وضغط عليها وجعلها تنزف.

هذه المرة انتظرت. فى الليل وضعت علبه سجائر بجانب المصباح، وهى تعرف أنه يستطيع تحمل الجوع والعطش ولكنه لا يتحمل الحاجة إلى التدخين.

وأخيراً، فى منتصف يوليو، عاد داماسو إلى الحجرة عند الغسق. اصبحت أناعصبية ، وقد فكرت أنه لابد أن يكون فى حالة صعبة حتى يأتى ليبحث عنها فى هذه الساعة. تناولا الطعام فى صمت، لكن قبل الذهاب إلى الفراش كان داماسو متعباً ورقيقاً، وعلى نحو غير متوقع قال:

- «أريد أن أرحل».
- «إلى أين؟»
- «إلى أى مكان».

نظرت أنًا فى أرجاء الغرفة. أغلفة المجلات التى قصتها بنفسها وألصقتها على الجدران حتى غطيت تماماً بصور نجوم السينما بهتت وصارت بلا لون. لقد فقدت عدداً من الرجال الذين، بعدما أطالوا النظر إلى هذه الصور وهم فى السرير، اختفوا تدريجياً وأخذوا معهم هذه الألوان.

قالت: «أنت تشعر بالضجر معى».

- «ليس هذا، إنها هذه المدينة».
- «إنها مثل أى مدينة أخرى».
- «لا أستطيع بيع الكرات».
- «دع الكرات وشأنها . طالما أن الله يعطينى القوة لأعمل فى الغسيل فلن تحتاج للدوران بحثاً عن فرص «وبعد لحظة صمت أضافت برقة:

« لا أعرف كيف فعلت هذا ».

أنهى داماسو سيجارته قبل أن يتكلم:

«لقد كان سهلاً للغاية حتى أننى لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يفعلها أحد من قبلى».

قالت أنا: «من أجل النقود. لكن أحداً لا يمكن أن يكون من الغباء بحيث يسرق الكرات».

قال دامسو: «لقد فعلتها دون تفكير. كنت أغادرالمكان حين رأيت الكرات خلف الكونتر فى الصندوق الصغير، وظننت أنه من السخف أن آتى خالى الوفاض».

قالت أنًا: هذه كانت غلطتك»:

أحس داماسو بالارتياح. قال: «وفى نفس الوقت فإن الكرات الجديدة لم تصل. أرسلوا يقولون أنها الآن أغلى ثمناً. وقال روك إنه ألغى الطلب.». أشعل سيجارة أخرى، وفيما كان يتحدث، أحس أن قلبه يتحرر من حمل ثقيل.

أخبرها أن المالك قد قرر أن يبيع مائدة اللعب. إنها لا تساوى الكثير.

المفرش. وقد مزقته ضربات خرقاء من اللاعبين الجدد، قد أُصلح برقع مختلفة الألوان ويلزم تغييره كلية. وفى نفس الوقت فان زبائن القاعة الذين شبواعلى لعب البليارد، وليس لديهم الآن تسلية أخرى فيما عدا سماع إذاعة مباريات البيسبول من الراديو.

وأنهى داماسو كلامه قائلاً: «وهكذا، دون أن نريد، أذينا كل المدينة»

قالت أنّا: «بلا مقابل».

– «الأسبوع القادم ستنتهى مباريات البطولة».

– «وليس هذا أسوأ ما فى الأمر. أسوأ ما فى الموضوع هو الزنجى».

مستلقية على كتفيه، مثلما كان فى الأيام الخوالى، عرفت فيما كان زوجها يفكر . انتظر حتى أنتهى من السيجارة. ثم بصوت حذر، قالت:

– «داماسو».

– «ما الأمر؟»

– «وأعدها».

أشعل سيجارة أخرى. وقال:

– «هذا ما كنت أفكر فيه منذ عدة أيام . لكن الشىء الوسخ فى الموضوع أننى لا أتصور كيف يمكن تنفيذ هذا».

وهكذا قررا أن يتركا الكرات فى مكان عام. ثم فكرت أنّا أنه بينما يحل هذا مشكلة قاعة اللعب، فإنه يترك مشكلة الزنجى بغير حل. فالشرطة تستطيع تفسير وجود الكرات تفسيرات عديدة، دون تبرئته. كما أنها- أنّا- لم تنس إمكانية أن يجد شخص ما الكرات وبدلاً من إعادتها يحتفظ بها لبيعها.

وانتهت أنّا إلى القول: «حسن، طالما ستعمل شيئاً فمن الأحسن عمله بالطريقة الصحيحة».

حفرا الأرض وأخرجا الكرات. لفتهم أنّا فى ورق جرائد، مراعية

ألا تكشف اللفة عن شكل المحتويات، ثم وضعتها فى صندوق الملابس.

قالت «يجب أن ننتظر الفرصة المناسبة».

لكنهما أمضيا أسابيع فى انتظار الفرصة المناسبة. وفى ليلة العشرين من أغسطس- شهران بعد السرقة- وجد «أماسو روك جالساً خلف الكاونتر يهش البعوض بمروحة. ومع صمت الراديو بدت وحدته مكثفة.

«قلت لك..» أوضح روك بنوع من الفرحة لنبوءته التى تحققت».. لقد ذهب العمل إلى الجحيم». وضع داماسو قطعة نقود فى صندوق الاسطوانات. بدا صوت الموسيقى الصاخب له كأنه دليل صارخ على ولائه. لكن تكون لديه إحساس بأن روك لم يلاحظ هذا، حينئذ جذب كرسياً وحاول أن يعزيه بحجج متخبطة فندها المالك بلا إحساس وذابت مع إيقاع مروحته اللامبالى. كان يقول «لا شىء يمكن عمله، وبطولة البيسبول لا تستمر إلى الأبد».

– «ولكن الكرات قد تظهر».

– «لكن تظهر».

– «لا يمكن أن يكون الزنجى قد أكلها».

– «بحث البوليس فى كل مكان، لقد ألقاها فى النهر».

– «قد تحدث معجزة».

– «إنس أوهامك يا ابنى، إن سوء الحظ يشبه الحلزون، هل تؤمن بالمعجزات؟»

- «أحياناً».

حين ترك دامسو المكان، لم تكن عروض السينما قد انتهت بعد. كان حوار الفيلم المطوط والمكسر يتردد صداه فى المدينة المظلمة، وكانت ثمة أسباب للبيوت القليلة التى ظلت مفتوحة.

سار داماسو للحظة فى اتجاه السينما، ثم ذهب إلى صالة الرقص.

كانت الفرقة تعزف لزبون أعرب كان يرقص مع امرأتين فى نفس الوقت. أما الآخرون الذين جلسوا بجانب الحائط فقد بدا أنهم ينتظرون البريد. جلس داماسو على إحدى الموائد. وأشار إلى عامل البار ليحضر له بيرة، وشربها من الزجاجة مع وقفات قصيرة ليتنفس، وكان يراقب الرجل الذى يرقص مع المرأتين، كان أقصر منهما.

فى منتصف الليل وصلت النساء اللائى كن فى السينما يلاحقهن عدد من الرجال. صديقة داماسو التى كانت معهم تركت الآخرين وجلست إلى مائدته.

لم ينظر داماسو إليها، كان قد شرب ست زجاجات بيرة وظل يحملق فى الرجل، الذى كان فى ذلك الوقت يرقص مع ثلاث نساء لكن دون أن يعيرهن أى انتباه، ويتسلى بحركات قدميه المعقدة. بدا سعيداً، وكان من الواضح أنه سيبدو أكثر سعادة لو كان له، بالاضافة إلى ذراعيه وساقيه، ذيل.

قال دامسو: «أنا لا أحب هذا الجدع»

قالت الفتاة «إذن لا تنظر إليه».

طلبت شرابا من الساقى. بدأت حلبة الرقص تمتلئ بالرجال والنساء، لكن الرجل ذا النساء الثلاث ظل كما لو أنه الوحيد فى القاعة. فى إحدى الدورات تقابلت عيناه مع عينى داماسو وبذل جهداً أكبر فى الرقص. وأظهر له ابتسامة بأسنانه التى تشبه أسنان الأرنب، ثبت داماسو نظرته دون أن تطرف له عين، حتى غضب الرجل وأدار له ظهره.

قال داماسو « يظن أنه سعيد جداً».

قالت الفتاة «إنه سعيد جداً. كل مرة يأتى إلى المدينة يدفع بسخاء لفرقة الموسيقى مثل كل الوكلاء المتجولين».

حول داماسو عينيه نحو الفتاة.

- «إذن اذهبى إليه. حيث يوجد مكان لثلاثة يوجد مكان لأربعة».

دون أن تجيب حولت وجهها صوب حلبة الرقص. وهى تشرب رشفات بطيئة. كان الرداء الأصفر الشاحب إطاراً لوجهها الذى غمرته حمرة الخجل.

رقصا معاً على اللحن التالى. وحين انتهى كان داماسو يغمغم. قالت له الفتاة وهى تقوده نحو الكاونتر» إنى أموت جوعاً، وأنت أيضا يجب أن تأكل.» كان الرجل السعيد قادماً من الاتجاه المقابل مع النساء الثلاثة.

«اسمع » قال له داماسو».

ابتسم الرجل له دون أن يتوقف. ترك داماسو ذراع رفيقته

واعترض طريقه.

« أنا لا أحب أسنانك».

شحب وجه الرجل لكنه ظل يبتسم . ثم قال «وأنا أيضاً».

قبل أن تستطيع الفتاة التدخل، كان داماسو قد لطمه على وجهه وجلس الرجل فى وسط الحلبة. لم يتدخل أحد من الزبائن. أمسكت النساء الثلاثة بداماسو من وسطه وهن يصرخن بينما كانت رفيقته تدفعه نحو نهاية القاعة.

نهض الرجل، ووجهه مضطرب من أثر اللطمة. قفز مثل قرد إلى وسط الحلبة وصاح:

«استمروا فى الموسيقى».

حوالى الثانية صباحاً كانت القاعة خاوية تقريباً، وبدأت النساء، اللائى بلا زبائن، فى تناول الطعام. كان الجو حاراً. أحضرت الفتاة طبق أرز بالفاصوليا واللحمة المحمرة إلى المائدة، وأكلته بالملعقة. راقبها داماسو بنوع من الذهول والحذر. قدمت له ملعقة أرز «افتح فمك».

خفض داماسو ذقنه إلى صدره وهز رأسه. قال «هذا للنساء، نحن الرجال لا نأكل».

كان عليه أن يعتمد بيديه على المائدة لكى ينهض. وحين استعاد توازنه كان ساقى البار أمامه عاقداً ذراعيه على صدره:

«وصل الحساب إلى تسعة وثمانين. هذه الحفلة ليست على حساب المحل». دفعه داماسو جانباً وهو يقول «أنا لا أحب الشواذ

جنسياً».

جذبه عامل البار من كمه، لكن، باشارة من الفتاة تركه يمر وهو يقول:

«إنك لا تعرف ما الذى سنفقده».

تعثر داماسو فى الخارج. البريق الغامض للنهر فتح فى ذهنه أخدوداً من صفاء الفكر. لكنه أغلق فى الحال. حين رأى باب حجرته. فى الجانب الآخرمن المدينة، تأكد داماسو أنه مشى وهو نائم. هز رأسه. تأكد، بطريقة غامضة ولكن ملحة أن عليه من هذه اللحظة فصاعداً أن يراقب كل حركة من حركاته. دفع الباب محاذراً ألا تحدث مفصلات الباب صوتاً.

أحست به أنًا وهو يبحث فى صندوق الملابس. استدارت صوب الحائط لتتجنب ضوء المصباح ، لكنها فى تلك اللحظة تأكدت أن زوجها لم يكن يخلع ملابسه.

لحظة حدس جعلتها تجلس فى السرير.

كان داماسو بجانب الصندوق، وفى يديه الربطة التى تحوى الكرات والمصباح اليدوى.

وضع سبابته على شفتيه.

قفزت أنا من السرير. «أنت مجنون..» غمغمت وهى تجرى نحو الباب. أغلقت الرتاج بسرعة. وضع داماسو المصباح فى جيب منطاله مع السكين الصغير وبعض المبارد المسنونة وتقدم صوبها متأبطا الربطة. اعتمدت أنًا بمؤخرتها على الباب.

«لن تخرج من هنا طالما أنا على قيد الحياة». قالت بسرعة. حاول داماسو أن يدفعها جانباً: «ابعدى» أمسكت أنًا بمقبض الباب بكلتا يديها.

نظر كل منهما فى عين الآخر دون أن يطرف له رمش. همست أنًا: « إنك جحش، وما أعطاه لك الله من جمال فى مظهرك أخذه من عقلك. «امسك بها داماسو من شعرها، لوى رسغها، بحيث صارتحت رأسها: وبأسنان مطبقة قال «قلت لك ابعدى». نظرت أنا إليه من طرف عينها ، مثل ثور تحت النير. للحظة أحست أنها محصنة ضد الألم وأنها أقوى من زوجها، لكنه ظل يلوى شعرها حتى خنقتها الدموع:

«إنك تقتل الطفل الذى فى بطنى».

سحب داماسو، أو بالاصح حمل جسدها إلى السرير. وحين رفع يديه عنها، قفزت على ظهره، ولفت ساقيها وذراعيها حوله. وسقط الاثنان على السرير كان العرق قد بدأ يتصبب منهما. همست أنًا فى أذنه «سأصرخ، لو تحركت سأصرخ».

شخر داماسو فى غضب وهو يضرب ركبتيها بصرة الكرات. أطلقت أنًا صرخة وفكت ساقيها لكنها تشبثت بوسطه لتمنعه من الوصول إلى الباب. ثم بدأت تستعطفه.

«أعدك أنى سوف أخذها بنفسى غداً» سأعيدها إلى مكانها لذلك لن يلحظ أحد». وفيما يقترب داماسو من الباب كان يضرب يديها بالكرات.

كانت تتركه للحظة لتتغلب على الألم. ثم تمسك به مرة أخرى وتستمر فى الاستعطاف: «أستطيع أن أقول أنها تخصنى، لا يستطيعون أن يضعوك فى الحبس بأى حال».

هزها داماسو. قال أنًا: «كل المدينة سوف تراك. إنك غبى ولم تلاحظ أن القمر بدرساطع». جذبته ثانية قبل أن يفتح الباب. ثم ، وهى مغمضة عينيها ، راحت تكيل له الكلمات على رقبته ووجهه، وهى تصرخ:

«حيوان، حيوان»

حاول داماسو تفادى اللكمات وتشبثت هى البرتاج وأخذته من بين يديه.

وجهت لكمة إلى رأسه. حاول داماسو أن يتفاداها ، وارتطم الرتاج بعظمة كتفه فأحدث صوتاً كما لو أنه على لوح زجاج.

صاح: «عاهرة».

فى هذه اللحظة لم يكن مبالياً ألا يحدث ضجة . ضربها على أذنها بظهر قبضته ، وأحس بالصرخة العميقة واصطدام جسدها القوى بالحائط، لكنه لم ينظر إليها. ترك الحجرة دون أن يغلق الباب.

ظلت أنًا جالسة على أرض الغرفة، مخدرة بفعل الألم، وانتظرت أن يحدث شىء فى بطنها. نادوها فى الجانب الآخر للحائط بصوت كأنه قادم من خلف القبور. غضت شفتيها لكى لا تصرخ. ثم نهضت وارتدت ملابسها. لم يرد فى ذهنها- كما لم يرد فى المرة الأولى- أن

داماسو ربما ما يزال خارج الحجرة، يقول لنفسه أن الخطة قد فشلت ومنتظراً إياها أن تخرج صارخة.

وقعت فى نفس الخطأ للمرة الثانية: بدلاً من أن تلاحق زوجها، ارتدت حذائها، أغلقت الباب، وجلست على السرير تنتظر.

فقط حين أغلق الباب فهم داماسو أنه لا يستطيع العودة إلى الغرفة.

لاحقه نباح الكلاب حتى نهاية الشارع، بعد ذلك كان ثمة صمت كصمت الأشباح. كانت خطواته تحدث صوتاً عالياً وغريباً فى شوارع المدينة النائمة. لم يتنبه لنفسه حتى وصل إلى قطعة الأرض الخالية عند الباب الخلفى لقاعة اللعب.

هذه المرة لم يكن بحاجة إلى استخدام مصباح اليد. لم تضف دعامات جديدة للباب فيماعدا الجزء الذى تقع فيه الرزة المكسورة. لقد نزعوا قطعة خشب فى حجم وشكل قالب الطوب، ووضعوا مكانها قطعة خشب جديدة، ثم أعادواتركيب الرزة القديمة. أماالباقى فكما هو. جذب داماسو القفل بيده اليسرى، ووضع نهاية مبرد بين ساقى الرزة ثم راح يحرك المبرد للأمام والخلف مثل رافعة الفتيس، بقوة ولكن بدون عنف، حتى تكسرالخشب وتناثرت شظاياه. قبل أن يدفع الباب. رفعه قليلاً ليقلل من ضجة احتكاكه بطوب الأرضية. فتح الباب إلى نصفه فقط وأخيراً خلع حذائه. وضعه مع ربطة الكرات، وهو يرسم الصليب ، دخل الحجرة يغمره ضوء القمر.

أمامه مباشرة كان ثمة ممر مظلم مكتظ بالزجاجات والصناديق

الفارغة على مبعدة يسيرة، وتحت ضوء القمر، توجد مائدة البليارد،، ثم ظهرت الكبائن ، وأخيراً المناضد الصغيرة والكراس مكومة خلف الباب الأمامى. كل شىء كان كما هو مثل المرة الأولى، فيما عدا ضوء القمر والصمت الهش الذى يخيم على المكان.

أحس داماسو، الذى كان عليه حتى هذه اللحظة أن يسيطر على جهازه العصبى، أحس بسحر غريب.

فى هذه المرة لم يهتم بالطوب «الملخلخ» حشر الباب بحذائه وبعد أن عبر منطقة الضوء أضاء مصباح الجيب ليبحث عن صندوق الكرات الصغيرة خلف الكاونتر.

عمل دون حذر. وفيما هو يحرك المصباح من اليمين لليسار، رأى كومة من الجرار المتربة، وزوجاً من الركاب بالمهامين، وقميصاً ملفوفاً متسخاً بزيت المحرك، ثم الصندوق الصغير فى نفس البقعة التى تركه فيها. لكنه لم يوقف شعاع الضوء حتى آخر الكونتر. كانت هناك قطة.

نظر الحيوان إليه دون غموض ، فى مواجهة الضوء. ظل داماسو مسلطاً الضوء على القطة حتى تذكر ، وقد انتابته رجفة خفيفة، أنه لم يرها أبداً فى المكان أثناء النهار. مد المصباح إلى الأمام وهو يقول «بس!!!» لكن الحيوان ظل جامداً لا يتحرك. ثم كان نوع من الانفجارالصامت داخل رأسه. واختفت القطة تماماً من ذاكرته. وحين تحقق مما يحدث كان قد أطفأ المصباح وهو يحتضن لفة الكرات فى صدره. ثم أضيئت الحجرة.

«حسن»!

تعرف على صوت روك. وقف ببطئ، مستشعراً تعباً فظيعاً فى كليتيه.

اقترب روك من نهاية الحجرة، وهو يرتدى ملابسه الداخلية وفى يده قضيب حديدى، وما زال الضوء يغشى عينيه . كانت ثمة أحة شبكية مغلقة خلف الزجاجات والصناديق الفارغة، قريبة جداً من البقعة التى مر بها داماسو حين دخل، هذا أيضا مختلف عن المرة الأولى.

حين كان على مبعدة ثلاثين قدما أو أقل وثب روك وثبة صغيرة واتخذ وضعاً دفاعياً. أخفى داماسو يده التى تمسك بالصرة خلف ظهره. غضن روك أنفه ومد رأسه محاولا أن يتعرف عليه بدون نظارة.

«أنت!» صاح متعجباً.

أحس داماسو كما لو أن شيئاً أزلياً قد انتهى اخيراً. أنزل روك قضيب الحديد واقترب منه فاغر الفم. دون نظارات ودون أسنانه الصناعية بدا روك مثل امرأة:

«ماذا تفعل هنا؟»

«لا شىء» قال داماسو.

غيرمكانه بحركة سريعة.

- «ماالذى معك؟»

تراجع داماسو إلى الوراء: «لا شىء».

احمروجه روك وبدأيرتعش:

«ماالذى معك؟» صاح، متقدماً للأمام رافعاً القضيب الحديد.

أعطاه داماسو اللفة. أخذها روك بيده اليسرى ، وهو ما يزال فى وضع دفاعى، وفحصها بأصابعه. حينئذ فقط فهم:

«مستحيل!».

أذهلته المفاجأة، حتى أنه وضع القضيب الحديد على الكاونتر وبدا أنه نسى داماسو فيما كان يفتح اللفة. تأمل كرات البيسبول فى صمت:

«جئت لأعيدها» قال داماسو.

«طبعاً» قال روك.

أحس داماسو بالانهاك. كان تأثير الكحول قد زايله تماماً، ولم يبق سوى مذاق الثمالة، أشبه بطعم الحصى، على طرف لسانه، وشعور مبهم بالوحدة. قال روك: «إذن فهذه هى المعجزة، لا أصدق أنك بهذا الغباء».

وحين رفع رأسه ، كان قد غير تعبيرات وجهه:

«والمائتى بيزو؟»

رد دامسو: «لم يكن هناك شىء فى الدرج».

نظر روك إليه بامعان، محركا فكيه ، ثم ابتسم : «لم يكن هناك شىء »، وكررهاعدة مرات: «إذن فلم يكن هناك شىء». أمسك بالقضيب مرة أخرى وهو يقول:

«حسن، إننا ذاهبان لنخبر العمدة بهذه القصة فوراً».

جفف داماسو عرق يديه فى منطاله:

«أنت تعرف أنه لم يكن يوجد شيء».

ظل روك مبتسماً:

«كان فى الدرج مائتى بيزو ، والآن سوف يخرجون هذه النقود من جلدك، أن تكون لصا ليس أسوأ من أن تكون مغفلاً!».

ورود صناعية

فى عتمة الفجركانت ميناتعرف طريقها . ارتدت ثوبها بلا أكمام، وكانت فى الليلة السابقة قد علقته بجوار السرير، وبحثت فى صندوق الثياب عن الأكمام المنفصلة. ثم بحثت عنهاعلى المسامير المثبتة فى الحيطان، وخلف الأبواب، محاولة ألا تحدث صوتاً حتى لاتوقظ جدتها العمياء التى كانت تنام فى نفس الحجرة. ولكنهاعندمااعتادت الظلمة لاحظت أن الجدة قد استيقظت ، فذهبت إليها فى المطبخ لتسألها عن الأكمام.

«إنها فى الحمام». قالت المرأة العمياء. قد غسلتها أمس بعد الظهر».

كانت الأكمام هناك ، معلقة على سلك بمشبكين خشبيين كانت ما تزال مبتلة. رجعت ميناً إلى المطبخ وشدت الأكمام على أحجار

الموقد. أمامها كانت المرأة العمياء تحرك القهوة، وحدقتا عينيها الميتتان مثبتتان على سور الشرفة الحجرى حيث كان يوجد صف من الأصص زرعت بهاأعشاب طبية.

قالت مينا «لا تأخذى حاجياتى مرة ثانية، هذه الأيام لا تستطيعين الاعتماد على الشمس. حركت المرأة العمياء وجهها صوب الصوت ثم قالت:

«لقد نسيت أن اليوم هوالجمعة الكبيرة».

وبعد أن تشممت القهوة بنفس عميق لترى إن كانت قد نضجت، أخذت الإناء من على النار. ثم قالت:

«ضعى قطعة ورق تحت، لأن هذه الأحجار متسخة».

مرت مينا بسبابتها على أحجارالموقد. كانت متسخة، ولكن طبقة السناج الصلبة لم تكن لتجعل الأكمام تتسخ مالم يكن أحد قد دعكها على الأحجار.

قالت: «إذا كانت قد اتسخت فأنت المسئولة»

صبت المرأة العمياء لنفسها فنجان قهوة. ثم قالت وهى تجذب كرسياً إلى الشرفة: «أنت غاضبة، وحرام أن يشترك المرء وهو غاضب». جلست تشرب قهوتها قبالة الورود فى الشرفة. وحين دق الجرس معلناً للمرة الثالثة عن القداس، أخذت ميناالأكمام من على أحجارالموقد وكانت ماتزال مبتلة.

ولكنها لبستها. لن يسمح لها الأب أنجيل بالتناول وهى عارية الأكتاف. لم تغسل وجهها. أزالت آثارأحمرالشفاة بمنشفة ، أخذت

كتاب الصلاة وشالاً من حجرتها ثم نزلت إلى الشارع. بعد ربع ساعة عادت ثانية.

قالت المرأة العجوز وهى جالسة أمام الورود فى الشرفة: «ستذهبين بعد قراءة الإنجيل».

ذهبت مينا فوراً إلى المرحاض وهى تقول: «لا استطيع الذهاب إلى القداس. الأكمام مبتلة والثوب كله مجعد». أحست بنظرة ثاقبة تتبعها.

أوضحت المرأة العمياء قائلة:

«الجمعة الكبيرة ولن تذهبى إلى القداس؟»

إثر عودتها من المرحاض، صبت مينا لنفسهافنجان قهوة وجلست فى مواجهة المرالأبيض المغسول، بجوارالمرأة العمياء. لكنها لم تستطع شرب القهوة .

«اللوم يقع عليك» غمغمت مينا بحقد دفين وقد أحست أنها تغرق فى دموعها.

«أنت تبكين!» تعجبت المرأة العمياء.

وضعت إناء الماء بجوار باقى الأوانى وخرجت إلى الشرفة وهى تكرر «أنت تبكين». وضعت مينا فنجانها على الأرض قبل أن تجلس وقالت: «إنى أبكى من الغضب» ثم أضافت ، وهى تمر إلى جوارجدتها» يجب أن تذهبى للاعتراف لأنك تسبب فى غيابى عن اشتراك الجمعة الكبيرة».

ظلت المرأة العمياء بلا حراك، منتظرة مينا أن تغلق باب حجرة

النوم ثم مشت إلى نهاية الشرفة. مالت بجزعها حتى وجدت الفنجان الذى لم يمس على الأرض. وبينما كانت تصب القهوة، استمرت قائلة:

«الله يعلم أن ضميرى سليم».

خرجت أم مينا من حجرة النوم سألت:

– «إلى من تتحدثين؟»

ردت المرأة العمياء:

– «لا أحد. قلت لك من قبل. أنى فى طريقى إلى الجنون».

فى حجرتها حلت مينا أزرار صدريتها وأخرجت ثلاث مفاتيح صغيرة كانت تحملها مشبوكة بدبوس. وبواحد من هذه المفاتيح فتحت الدرج السفلى للدولاب وأخذت صندوق الثياب الصغيرة. فتحته بمفتاح آخر. بداخله كانت توجه رزمة خطابات مكتوبة على ورق ملون. مربوطة بخيط من المطاط. خبأتها فى صديريتها، وضعت الصندوق الصغير فى مكانه، وأغلقت الدرج.

ثم ذهبت إلى المرحاض ورمت الخطابات فيه.

«ظننت أنك فى الكنيسة»، قالت أمها حين دخلت مينا إلى المطبخ.

قاطعتها المرأة العمياء: «لم تستطع الذهاب، لقد نسيت أنا أن اليوم هو الجمعة الكبيرة، وغسلت الأكمام أمس بعد الظهر».

«غمغمت مينا: «ماتزال مبتلة».

قالت المرأة العمياء :«كان علىّ أن أعمل بمشقة هذه الأيام».

قالت مينا: «علىّ أن أسلم مائة وخمسين دستة ورد لعيد القيامة».

اشتدت حرارة الشمس مبكراً . قبل السابعة رتبت مينا محل الزهورالصناعية الذى تملكه فى حجرة المعيشة: سلة مليئة بتويجهات الزهوروالأسلاك، صندوق ملئ بورق الكريب ، مقصان ، بكرة خيط، وإناء صمغ . بعد برهة وصلت ترينيداد، وتحت ذراعها صندوق من الورق المقوى. وسألتها لماذا لم تذهب إلى القداس.

قالت مينا: «ليس عندى أى أكمام».

ردت ترينيداد: «أى واحدة كان يمكن أن تعيرك أكماماً.

سحبت كرسيا وجلست بجوار سلة التويجات وقالت مينا «تأخرت جداً».

أكملت وردة ثم جذبت السلة قريباً منها لتشذب التويجات بالمقص وضعت ترينيداد الصندوق الكرتون على الأرض وبدأت العمل.

نظرت مينا إلى الصندوق. سألت:

«هل اشتريت حذاء»

اجابت ترينيداد «إنها فئران ميتة».

منذ أن أصبحت ترينيداد خبيرة فى تطريز التويجات ، صارت مينا تقضى وقتها فى عمل سيقان الزهور من السلك الملفوف بالورق الأخضر. كانتا تعملان فى صمت دون أن تلحظا تقدم الشمس فى غرفة المعيشة التى كانت تزينها صور الرعاة المطبوعة والصور الفوتوغرافية لأفراد العائلة وحين انتهت من عمل السيقان اتجهت مينا نحو ترينيداد بوجه بدا أنه ينتمى إلى شىء غير مادى.

كانت ترينداد تطرز بمهارة تثير الأعجاب. لا تكاد تحرك طرف التويج بين أصابعها، وساقان مضمومتان. لاحظت مينا حذاءها الرجالى. تجنبت ترينيداد النظرة دون أن ترفع رأسها، وبخفة سحبت قدميها إلى الخلف، وكفت عن العمل.

قالت: «ماالحكاية؟»

مالت ميناتجاههاوقالت: «لقد رحل»

رمت ترينيداد المقص فى حجرها:

- «لا.»

كررت مينا: «لقد رحل».

نظرت ترينداد إليها دون أن تطرف لهاعين. قسمت تجعيدة رأسية حاجبيها المقطبين.

سألت: «والآن؟»

أجابت مينا بصوت ثابت:

- «الآن لا شيء».

أرادت ترينيداد أن تنصرف قبل العاشرة.

استوقفتها مينا- وقد تحررت من ثقل همها الشخصي- استوقفتها لحظة لتلقى بالفئران الميتة فى المرحاض.

كانت المرأة العمياء تشذب شجيرة الورد.

قالت لها مينا وهى تمر: «أراهن أنك لن تعرفى ما فى هذا الصندوق».

وهزت الفئران.

بدأت المرأة العمياء تركز انتباهها وقالت:«هزيه مرة أخرى».

أعادت مينا الحركة، لكن المرأة العمياء لم تستطع التعرف على ما بداخل الصندوق بعد أن انصتت للمرة الثالثة وهى تضغط بسبابتها على شحمة أذنها.

قالت مينا: «إنهاالفئران التى وقعت فى مصيدة الكنيسة ليلة أمس.»

عندما عادت مرت بجوارالمرأة العمياء دون كلمة . لكن المرأة العمياء تبعتها. وعندما وصلت إلى غرفة المعيشة كانت مينا وحدها بجوارالنافذة المغلقة، تكمل الزهور الصناعية.

قالت المرأة العمياء:«مينا، إذا أردت أن تكونى سعيدة فلا تعترفى مع الغرباء».

نظرت مينا إليها دون أن تنطق بكلمة.

جلست المرأة العمياء على الكرسى فى مواجهتها وحاولت أن تساعدها فى العمل. ولكن مينا أوقفتها.

قالت المرأة العمياء: «أنت عصبية» ثم سألت: «لماذا لم تذهبى إلى القداس؟

- «أنت تعرفين اكثر من أى واحد».

قالت العمياء:« لو كانت الأكمام هى السبب، لمااهتممت بالخروج من البيت. كان شخص ما فى انتظارك على الطريق وسبب لك نوعاً من خيبة الأمل.

مرت مينا بيديها أمام عيون جدتها، كما لو كانت تنظف لوحاً

زجاجياً غير مرئى.

ثم قالت لها: «أنت ساحرة».!

قالت المرأة العمياء:« لقد ذهبت إلى المرحاض مرتين هذا الصباح وأنت لا تذهبين أكثر من مرة واحدة».

استمرت مينا فى عمل الزهور. سألتها المرأة العمياء: «هل تجرؤين على أن ترينى ما تخبئينه فى درج الدولاب؟»

على مهل لصقت ميناالوردة على إطارالنافذة، وأخذت المفاتيح الثلاثة الصغيرة من صديريتها، ووضعتها فى يد المرأة العمياء التى أغلقت أصابعها.

قالت مينا: «اذهبى أنت لترى بعينيك».

فحصت العمياء المفاتيح الصغيرة بأطراف أصابعها. ثم قالت:

«إن عينى لا تستطيعان رؤية ما بأعماق المرحاض».

رفعت مينا رأسها ثم شعرت بإحساس مختلف، شعرت أن المرأة العمياء عرفت أنها تنظر إليها. قالت:

«اقذفي بنفسك فى أعماق المرحاض إذا كان ما أفعله يهمك إلى هذا الحد».

تجاهلت المرأة العمياء هذه المقاطعة وقالت:

وإنك دائماً تظلين مستيقظة فى فراشك تكتبين حتى مطلع الصباح».

قالت مينا:

– «أنت نفسك تطفئين النور».

ردت العمياء:

– وفوراً تضيئين المصباح اليدوى، أستطيع أن أقول لك إنك تكتبين مثلما تتنفسين.

جاهدت مينا لكى تبقى هادئة ، ثم قالت دون أن ترفع رأسها:

«حسناً، ولنفرض أن هذا صحيح، فماذا يهمك فى هذا؟»

– لا شيء، سوى أن هذا جعلك لا تلحقين بقداس الجمعة الكبيرة».

بكلتا يديها التقطت مينا لفة الخيط، والمقص ، وحفنة من الورود والسيقان التى لم تنته بعد. وضعتها جميعاً فى السلة وواجهت المرأة العمياء:

– هل تودين أن أخبرك أننى ذهبت لأفعلها فى المرحاض؟

ظلت كلتاهما فى حالة ترقب حتى أجابت مينا على سؤالها:

– ذهبت لآخذ خراء.

ألقت المرأة العمياء بالمفاتيح الثلاثة الصغيرة فى السلة، وهمهمت وهى ذاهبة إلى المطبخ:

– يا له من عذر لائق، كان يمكن أن تقنعينى لو لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تسبين فيها. «كانت والدة مينا قادمة عبرالممر فى الاتجاه المضاد، وكانت ذراعاها مليئتان بباقات الزهور ذات الأشواك. سألت:

– ماالذى يحدث؟

أجابت المرأة العمياء:

- «إننى مجنونة، ولكنك فى الغالب لن ترسلينى إلى المصلحة العقلية ما دمت لم أبدأ فى إلقاء الأحجار.

****

عينا كلب أزرق

ثم نظرتْ إليَّ. ظننت أنها كانت تنظر لي للمرة الأولى. لكن عندئذ، عندما استدارت خلف المصباح وكنت ما أزال أُحس نظراتها المراوغة المداهنة خلفي، عبركتفي، فهمت أنى أنا الذى كنت أنظر إليها للمرة الأولى.

أشعلت سيجارة سحبت نفساً من الدخان النفاذ قبل أن أدور بالكرسى مرتكزاً على إحدى رجليه الخلفيتين. بعد ذلك رأيتها هناك، كما لو أنها كانت واقفة بجوار المصباح تنظر إليَّ كل ليلة. لدقائق قليلة كان ذلك كل ما فعلناه: ينظر كل منا إلى الآخر. نظرت من على الكرسى، مرتكزاً على إحدى رجليه الخلفيتين. ووقفتْ هى ، ويدها الطويلة الهادئة على المصباح، تنظر إلى.

رأيت جفنيها مضيئين مثل كل ليلة. عندئذ تذكرت الشيء المعتاد،

عندما قلت لها: «عينا كلب أزرق». دون أن ترفع يدها عن المصباح قالت لى «هكذا. لن ننسى ذلك». تحركت من مكانها وهى تتنهد: «عينا كلب أزرق . لقد كتبتها فى كل مكان».

رأيتها تسير صوب «التسريحة». راقبتها وهى تبين فى زجاج المرآة الدائرى تنظر إلى بعينيها الجمرتين العظيمتين: تنظر إلى بينما كانت تفتح الصندوق الصغير المغطى بلؤلؤة وردية اللون. رأيتها تضع المسحوق على أنفها. عندما انتهت، أغلقت الصندوق ، ووقفت مرة أخرى، ومشت صوب المصباح قائلة: «أخاف أن يكون أحدهم يحلم بهذه الحجرة ويكشف أسرارى». وفوق لهب المصباح مدّت نفس اليد الطويلة المرتجفة التى كانت تدفئها قبل أن تجلس إلى المرآة. وقالت: «ألا تحس بالبرد» وقلت لها: «أحياناً» وقالت لى: «يجب أن تحس به الآن».

عندئذ فهمت لماذا لم أستطع أن أكون وحيداً على المقعد . كان البرد هو الذى يعطينى يقين وحدتى . قلت «الآن أحس به وهذا شىء غريب لأن الليلة هادئة. ربما سقطت الملاءة». لم تجب . مرة أخرى بدأت تتحرك صوب المرآة واستدرت ثانية بالكرسى، معطياً ظهرى لها. ودون أن أراها، كنت أعرف ماذاتفعل. كنت أعرف أنها جالسة أمام المرآة مرة ثانية، ترى ظهرى الذى كان لديه الوقت ليصل إلى أعماق المرآة ويقع تحت بصرها الذى كان أيضا لديه الوقت ليصل إلى الأعماق ويعود قبل أن تبدأ اليد الدورة الثانية – حتى كانت شفتاها الآن مدهونتين باللون القرمزى منذ أول دورة ليدها أمام

المرآة.

رأيت، فى مواجهتى الحائط الناعم الذى كان يشبه مرآة أخرى عمياء لم أستطع أن أراها فيها– جالسة خلفى– ولكنى استطعت أن أتخيلها فى مكانها المحتمل كما لو أن مرآة قد علقت مكان الحائط. قالت لها: «إنى أراك» وعلى الحائط رأيت كما لو أنها رفعت عينيها ورأتنى فى أعماق المرآة وظهرى موجه نحوها من الكرسى، ووجهى نحو الحائط. ثم رأيتها تخفض عينيها مرة أخرى وظلت عيناها دائما على حمالة ثدييها، ولا تتكلم، وقلت لها ثانية: «أنى أراك». ورفعت عينيها من على حمالة ثدييها مرة أخرى. قالت «هذا مستحيل». سألتها لماذا، قالت وعيناها هادئتان وعلى حمالة ثدييها مرة أخرى.

«لأن وجهك موجه نحو الحائط». عندئذ أدرت الكرسى كانت السيجارة مثبتة فى فمى. وعندما بقيت مواجهاً المرآة عادت هى إلى جوار المصباح. الآن يداها مفتوحتان وممدودتان فوق اللهب، مثل جناحى دجاجة، تشوى نفسها، ووجهها تظلله أصابع يديها قالت: «أظن أنى سأصاب بالبرد لابد أن هذه مدينة ثلجية». أدارت وجهها ليصبح «بروفيل» وجلدها تحول من النحاس إلى الأحمر، وفجأة صارت حزينة . قالت «افعل شيئا» ثم راحت تخلع ملابسها قطعة قطعة بادئة من فوق، بحمالة ثدييها. قلت لها: «سأستدير إلى الحائط» قالت: «لا على أى حال سترانى كما رأيتنى عندما كنت تدير ظهرك» وما أن فرغت من قولهاهذا حتى كانت قد أصبحت عارية

تماما واللهب يلعق جسدها النحاسى الطويل.

«دائما كنت أرغب أن أراك هكذا، وبطنك ملئ بالندوب ، كما لو كنت قد ضُربت». وقبل أن أتحقق من أن كلماتى كانت فجة فى ضوء عريها صارت بلا حركة، تدفئ نفسها على كرة المصباح، وقالت: «أحيانا أفكر أننى مصنوعة من المعدن». وصمتت للحظة، تغير وضع يديها فوق اللهب قليلا.

قلت: «أحيانا، فى احلام اخرى، فكرت أنك لست سوى تمثال برونزى صغير فى ركن متحف ما وربما كنت باردة لهذا السبب وقالت: «أحيانا، عندما أنام على قلبى، أستطيع أن أحس بجسدى يصير أجوفا وجلدى رقائق من معدن ثم حين يجرى الدم دفاقاً فى داخلى، أحس كأن شخصاً ينادينى ويطرق على معدتى وأستطيع أن أحس صوتى النحاسى فى السرير، أنه أشبه بما تسمونه بالمعدن المطروق». اقربت أكثر من المصباح قلت: «أود أن اسمعك». وقالت: «إذا وجد كل منا الآخر ضع أذنك على أضلعى حين أنام على الجنب الشمال وسوف تسمعنى أردد الصدى. طالما أردتك تفعل هذا يوماً ما». سمعتها تتنفس بثقل وهى تتحدث. وقالت إنها لسنوات لم تفعل شيئاً آخر. وأن حياتها قد كرست للعثور علىّ فى الواقع، من خلال كلمة السر هذه : «عينا كلب أزرق». وأنها كانت تسير عبرالشوارع تقولها بصوت عال، كطريقة تبلغ بها الشخص الوحيد الذى يستطيع فهمها:

« أنا التى أجيء فى أحلامك كل ليلة وأقول لك «عينا كلب أزرق».

وقالت أنها كانت تذهب إلى المطاعم وقبل أن تطلب أى شيء كانت تقول للجرسونات: «عينا كلب أزرق». لكن الجرسونات كانوا ينحنون تبجيلا دون أن يتذكروا أنهم قالوا هذا فى أحلامهم. ثم كانت تكتب على المفارش وتحفر بسكين على طلاء الموائد: «عينا كلب أزرق» وعلى النوافذ التى يغبشها البخار فى الفنادق، والمحطات، وكل المبانى العامة كانت تكتب بسبابتها: «عينا كلب أزرق». قالت إنها ذهبت مرة إلى مخزن أدوية ولاحظت نفس الرائحة التى شمتها فى حجرتها ذات ليلة بعد أن حلمت بى. وقالت لنفسها، وهى ترى الأرضية المكسوة بالفلين النظيف الجديد فى مخزن الأدوية (لابد أنه قريب من هنا). ثم ذهبت إلى البائع وقالت له «عينا كلب أزرق» وقالت أن البائع نظر فى عينيها وقال لها: «حقيقة يا آنسة، إن لك فعلا عينين مثل التى تقولين عنهما». وقالت له على أن أجد الرجل الذى قال لى هذه الكلمات بالذات فى أحلامى». وبدأالبائع يضحك وذهب إلى الطرف الآخر من المحل. ظلت ترى الفلين النظيف وتشم الرائحة القوية. وكتبت بحروف حمراء: «عينا كلب أزرق». جاء البائع من حيثما كان. قال لها: «مدام، لقد وسخت الفلين «وأعطاها قطعة قماش مبلولة وهو يقول «نظيفة». وقالت، وهى ما تزال بجانب المصباح أنها امضت بعد الظهركله منحنية تنظف الفلين وهى تصرخ «عينا كلب أزرق» حتى تجمع الناس على الباب وقالوا إنها مجنونة.

***

والآن ، عندما انتهت من كلامها، بقيت فى الركن، جالساً، أهتز

بالكرسى. قلت «كل يوم أحاول أن أتذكر الجملة التى سأجدك بها والآن أظن أنى لن أنساها غداً. ومع ذلك فدائما كنت أقول نفس الشيء وعندما أستيقظ أنسى دائماً الكلمات التى يمكن أن أجدك بها». وقالت «إنك أنت الذى ابتكرت هذه الكلمات فى اليوم الأول». وقلت لها: «أنا ابتكرتها لأنى رأيت عينيك الرماديتين. لكن أبدا لم أتذكرها فى الصباح التالى». تنفست بعمق وقبضتاها مثبتتان بجوار المصباح: «لو استطعت على الأقل أن تتذكر الآن فى أى مدينة كنت أكتبها».

لمعت أسنانها فى ضوء اللهب. قلت: «أود أن ألمسك الآن». رفعت الوجه الذى كان ينظر إلى اللهب، رفعت نظرتها ، محترقة ، مشوية ، أيضا، تماما مثلها، مثل يديها، وشعرت أنها رأتنى، فى الركن حيث كنت جالساً، أهتز مع الكرسى. قالت: «إنك لم تخبرنى بذلك أبداً». قلت: «ها أنا أخبرك الآن، وإنها لحقيقة».

من الجانب الآخر من المصباح طلبْت سيجارة كان عقب السيجارة قد اختفى بين أصابعى نسيت أنى كنت أدخن قالت: «لا أعرف لماذا لا استطيع أن أتذكر أين كتبتها». وقلت لها: «لننس السبب الذى من أجله لن أكون فى الغد قادراً على تذكر الكلمات». وقالت بحزن: «لا.. إنما أحيانا أفكر أنى حلمت بذلك أيضا». وقفت ومشيت صوب المصباح. كانت وراءه بقليل وواصلت المشى والسيجارة والثقاب فى يدى التى لن تمتد وراء المصباح قدمت لها السيجارة وضعتها بين شفتيها ومالت للأمام لتصل إلى اللهب قبل

أن يكون لدى الوقت لاشعال الثقاب. قالت» فى مدينة ما فى العالم، على كل الجدران، يجب أن تظهرهذه الكلمات مكتوبة: «عينا كلب أزرق» لو تذكرتها غدا لاستطعت أن أجدك».

رفعت رأسها ثانية وكانت الجمرة المضيئة بين شفتيها. «عينا كلب أزرق» هكذا تنهدت متذكرة، والسيجارة تميل إلى ذقنها وإحدى عينيها نصف مغلقة. ثم سحبت نفساً من السيجارة وهى تضعها بين أصابعها وأوضحت:

«هذا شىء آخر الآن. إن الدفء يسرى فى «قالت ذلك بصوت فاتر يتلاشى، كما لو أنها لم تقله أصلا، لكن كما لو أنها كتبته على قطعة من الورق وقربت الورقة من اللهب بينما أنا أقرأ: «إن الدفء.. » ثم ظلت ممسكة بها بين السبابة والأبهام، وهى تديرها فيما كانت– الورقة– تحترق ولم أقرأ سوى «.. فى» قبل أن تحترق الورقة تماماً وتسقط إلى الأرض وقد تحولت إلى رماد مضىء قلت: «هذا أحسن. أحياناً ارتعب وأنا أراك بهذا الشكل ترتعشين بجانب المصباح».

كنا نرى بعضنا لسنوات عديدة. أحياناً، عندما نكون معاً، كان يحدث أن يلقى أحدهم بمعلقة فى الخارج فكنا نستيقظ وشيئا فشيئا بدأنا نفهم أن صداقتنا تابعة لأشياء، لأبسط الأحداث. كانت لقاءاتنا دائما تنتهى على هذا النحو بسقوط ملعقة فى الصباح الباكر.

والآن ، وهى واقفة وراء المصباح كانت تنظر إلَّى تذكرت أنها كانت تنظر إلىَّ فى الماضى بنفس الطريقة، منذ ذلك الحلم البعيد حيث كنت أدير الكرسى على إحدى رجليه الخلفيتين وأنا أواجه

امرأة غريبة بعينين رماديتين.

إنه ذلك الحلم الذى سألتها فيه لأول مرة: «من أنت؟ وقالت لى: «إنى لا أتذكر». قلت لها: «لكن أظن أننا رأينا بعضنا من قبل». وقالت بلا مبالاة:

«أظن أنى حلمت بك مرة، بنفس هذه الحجرة». وقلت لها: «تماماً. إني بدأت أتذكر الآن. «وقالت» يا للغرابة. من المؤكد أننا تقابلنا فى أحلام اخرى».

أخذت نفسين من السيجارة. كنت ما أزال واقفا، مواجها المصباح، حين ، فجأة، ثبت نظرى عليها. نظرت إليها من فوق لتحت وكانت ما تزال نحاساً. معدنا جامداً وبارداً، لكنه نحاس أصفر رقيق قابل للطرق. قلت مرة ثانية: «أود لو ألمسك». فقالت: «ستدمر كل شيء. قلت: «لا يهم الآن. ماعلينا إلا أن نقلب الوسادة لكى نتقابل ثانية». ومددت يدى فوق المصباح. لم تتحرك قالت قبل أن أستطيع لمسها: «إنك ستدمر كل شيء.

ربما. إذا أنت درت وجئت خلف المصباح، فسوف نستيقظ مرعوبين فى مكان ما من العالم لا نعلم ما هو». لكننى أصريت قائلا: «لا يهم» فقالت: «إذا قلبنا الوسادة فسوف نتقابل ثانية لكن حين تصحو ستكون قد نسيت».

بدأت أتحرك صوب الركن. بقيت هى خلف المصباح تدفئ يديها على اللهب. ولم أكن قد اقتربت من الكرسى حين سمعتها تقول خلفى: «عندما استيقظ فى منتصف الليل، أظل اتقلب فى السرير،

وهداب الوسادة يحرق ركبتى، وأردد حتى الفجر: «عينا كلب ازرق».

ثم بقيت ووجهى صوب الحائط. قلت دون أن أنظر إليها «إن الفجريقترب. عندما دقت الساعة الثانية كنت مستيقظا وكان هذا منذ وقت طويل مضى». وذهبت إلى الباب. وعندما أمسكت بالمقبض سمعت صوتها مرة ثانية، نفس الصوت لا يتغير. قالت «لا تفتح هذا الباب. إن الطرقة مليئة بالأحلام الصعبة». وسألتها: «كيف عرفت؟» وقالت لى: «لأنى كنت هناك منذ لحظة وكان على أن أعود حين اكتشفت أنى أنام على قلبى. «كان الباب نصف مفتوح. حركته قليلا فهبت نسمة باردة حملت لى معها الرائحة الطازجة للأرض الخضراء والحقول الندية. تحدثت مرة أخرى. استدرت وما زلت أحرك الباب ذا المفصلات الصامتة، وقلت لها:

«لا أظن أنه توجد أية طرقة بالخارج إني أتلقى رائحة الريف». قالت لى وهى بعيدة بعض الشىء: «إنى أعرف هذا أحسن منك. مايحدث هو أن ثمة امرأة بالخارج تحلم بالريف». وعقدت ذراعيها فوق اللهب. وواصلت كلامها: «إنهاتلك المرأة التى كانت تريد دائما أن يكون لها بيت فى الريف ولم تكن أبدا قادرة على ترك المدينة.» تذكرت أنى قد رأيت المرأة فى بعض الأحلام الماضية، لكن عرفت ، والباب موارب الآن، إنه فى خلال نصف ساعة سيكون على أن أنزل للإفطار. وقلت : «أيا كان الأمر، على أن أمشى من هنا من أجل أن أستيقظ».

فى الخارج هبت الريح للحظة، ثم هدأت وكان بالإمكان سماع

تنفس إنسان نائم قد تقلب لتوه فى الفراش.

الآن توقفت الرياح الآتية من الحقول، لم تعد هناك روائح. قلت «غداً سوف أتعرف عليك بهذا. سوف أعرفك عندما أرى فى الشارع أمرأة تكتب:

«عينا كلب أزرق» على الجدران. ردت عليَّ بابتسامة حزينة كانت بالفعل ابتسامة استسلام للمستحيل، لما لا يمكن الوصول إليه: «لكنك لن تتذكر أى شيء خلال النهار». ووضعت يديهاعلى المصباح، واكتست ملامحها بسحابة من الأسى. «إنك الرجل الوحيد الذى لا يتذكر شيئاً، مما يحلم به، بعد أن يستيقظ».

كنا جالسين، ثلاثتنا، حول المائدة، حين وضع أحدهم قطعة نقود في ثقب الجهاز فدارت نفس الأسطوانة التي كانت تدور طوال الليل. حدث الباقي بسرعة حتى أنه لم يكن لدينا وقت للتفكير، حدث قبل أن نستطيع أن نتذكر أين كنا، وقبل أن نسترد أحساسنا بالمكان. واحد منا مد يده على الكاونتر (لم نستطع أن نرى اليد، سمعناها)، ارتطمت بكوب زجاجي، ثم سكن وكلتا يديه مستقرتان على السطح الصلب. ثم بحثنا ثلاثتنا عن أنفسنا في الظلام ووجدنا أنفسنا هناك، في تشابك الأصابع الثلاثين مكومة على سطح الكاونتر. قال أحدنا:

«لنذهب».

ووقفنا كأن شيئاً لم يحدث. ما زلنا لا نملك الوقت لنتكدر.

وفيما نحن نجتاز الردهة سمعنا الموسيقى القريبة وكأنها تنادينا. التقطنا رائحة نساء حزينات جالسات ينتظرن.

أحسسنا بفراغ الردهة الممتد أمامنا فيما نحن نسير صوب الباب، قبل أن تظهرالرائحة الأخرى لتوجه لنا التحية، الرائحة البغيضة للمرأة التى تجلس بجوار الباب. قلنا

«إننا ذاهبون».

لم تجب المرأة بشىء ،سمعنا صوت كرسى هزاز عندما همت بالوقوف . سمعنا وقع الأقدام على ألواح الخشب المفككة وعودة المرأة حين أزت المفصلات مرة أخرى وأغلق الباب وراءنا.

استدرنا هناك،خلفنا بالضبط كانت نسمات فجر غير مرئى وصوت يقول:

«ابتعدوا عن الطريق، إنى داخل بهذا».

تحركنا للوراء. وتحدث الصوت مرة ثانية:

«مازلتم فى مواجهة الباب».

وعندئذ فقط ، وعندما تحركنا فى جميع الاتجاهات وسمعنا الصوت فى كل مكان، قلنا:

«لا يمكننا أن نبتعد عن هنا. أن طيورالكروان أكلت عيوننا».

حينئذ سمعنا عدة أبواب تفتح، أحدنا انسحب من الأيادى المتشابكة وسمعناه يتحسس طريقه فى الظلام متخبطاً بين الأشياء المحيطة بنا. تحدث من نقطة ما فى الظلام.

«يجب أن نقترب من بعضنا ثمة رائحة صناديق ملابس هنا».

أحسسنا بملمس يديه مرة أخرى استندنا إلى الحائط وهنامر بنا صوت آخر، ولكن فى الاتجاه المعاكس.

«قد تكون صناديق موتى» قال أحدنا.

لكن الذى تخبط فى الظلام والذى كان يلهث بجانبنا الآن قال:

«إنها صناديق ملابس ، منذ أن كنت صغيراً وأناقادرعلى معرفة رائحة الملابس المخزونة».

ثم تحركنا فى ذلك الاتجاه.كانت الأرض لينة وناعمة، أرض سهلة دبت عليها أقدام كثيرة. شخص ما مد يده.

أحسسنا بالملمس ، يد طويلة ناعمة، لكننا سرعان ما أحسسنا بالحائط فى وجهنا. قلنا «هذه امرأة».

قال الشخص الآخر، الذى تحدث عن صناديق الملابس:

«أظن أنها نائمة».

اهتز الجسد تحت أيدينا، وارتعش، وأحسسنا به يختفى، لم نحس أنه ابتعد عن متناول أيادينا ولكننا أحسسنا أنه لم يعد موجوداً البتة.

ظللنا، بعد برهة من السكون وعدم الحركة، متصلبين متلاصقى الأكتاف، حين سمعنا صوتها:

«من هناك؟»

«نحن». أجبنا دون حركة.

أمكننا سماع صوت السرير، صوت الأقدام وهى تبحث عن الشبشب فى الظلام. ثم تخيلنا المرأة الجالسة تنظر إلينا وهى ما

تزال تحت تأثير النوم.

سألت: «ماذا تفعلون هنا؟»

وأجبنا:

«لانعرف أن الكروان أكل عيوننا».

قال الصوت أنها قد سمعت شيئاً عن هذا. وأن الصحف قالت أن ثلاثة رجال كانوا يشربون فى ساحة حيث كان يوجد خمسة أو ستة من طيور الكروان سبعة كروانات. وبدأ واحد من الرجال يغنى مثل طيور الكروان، يقلدها.

ثم قالت: «المأساة أنه كان متأخراً ساعة، حين قفزت الطيورعلى المائدة ونقرت عيونهم وخلعتها».

قالت أن هذا ما قالته الصحف لكن أحداً لم يصدق هذه الصحف قلنا:

«لو ذهب الناس إلى هناك لرأوا طيور الكروان».

فقالت المرأة:

«لقد ذهبوا كانت الساحة غاصة بالناس فى اليوم التالى، لكن المرأة كانت قد أخذت طيور الكروان إلى مكان آخر».

حين استدار توقفت المرأة عن الكلام.

كان هناك الحائط مرة أخرى. فقط لو استدرنا سنجد الحائط حولنا، ثمةحائط يحيط بنا دائما. أحدنا انسحب من أيدينا مرة أخرى. سمعناه يزحف ويتشمم الأرض قائلاً:

«الآن لا أعرف أين صناديق الملابس. أظن أننا فى مكان آخر

الآن».

وقلنا:

«تعال هنا. ثمة شخص بجانبنا».

سمعناه يأتى إلينا. أحسسنا به يقف بجانبنا ومرة أخرى لفحت أنفاسه الحارة وجوهنا قلنا له «ابحث عن الطريق. ثمة شخص نعرفه هناك».

لابد أنه بحث، لابد أنه تحرك صوب المكان الذى حددناه، فبعد لحظة رجع ليقول لنا:

«أظن أنه ولد».

وقلنا له:

«حسناً اسأله إن كان يعرفنا».

سأل السؤال، سمعنا الصوت غيرالمبالى، البسيط للولد الذى قال:

«نعم، أعرفكم أنتم الرجال الثلاثة الذين أكلت طيورالكروان عيونهم».

ثم تحدث صوت كبير صوت امرأة بدت أنها خلف باب مغلق، تقول:

«إنكم تتحدثون إلى أنفسكم مرة أخرى».

وقال صوت الطفل بلا اهتمام:

«لا إن الرجال الذين نُقرت عيونهم موجودون هنا مرة أخرى».

كان ثمة صوتان منفصلان ثم الصوت الكبير، أقرب من المرة الأولى.

قالت: «خذهم إلى بيتهم».

فقال الولد:

«لاأعرف أين يعيشون».

وقال الصوت الكبير:

«لا تكن وضيعاً. كل إنسان يعرف أين يعيشون منذ الليلة التى نقرت فيهاالكروانات عيونهم».

ثم استمرت بنبرة مختلفة، كما لو كانت تتحدث إلينا:

«ما حدث هو أن أحداً لا يريد أن يصدق هذا ويقولون أنها أكذوبة صنعتهاالصحف لتزيد من توزيعها. ولم ير أحد طيورالكروان».

وقال هو:

«ولكن أحداً لن يصدقنى إذا قدتهم فى الشارع».

لم نتحرك كنا ما نزال مستندين إلى الحائط ننصت إليها وقالت المرأة:

إذا كان هذا سيأخذكم فالأمرمختلف. فعلى أى حال لن يهتم أحد كثيراً لما يقوله ولد».

وقاطعها صوت الطفل:

«إذا خرجت معهم إلى الشارع وقلت أنهم الرجال الذين نقرت الكروانات عيونهم، سيلقى الأولاد الحجارة علىَّ. كل واحد فى الشارع يقول أن هذا لا يمكن أن يحدث».

حدثت لحظة صمت ثم أغلق الباب مرة أخرى وتحدث الولد:

«إلى جانب ذلك فأنا أقرأ «تيرى والقراصنة» الآن بالذات».

قال شخص ما فى آذاننا:

«سأقنعه».

تقدم ببطء إلى حيث كان يوجد الصوت.

قال: «إنى أحبها، على الأقل قل لنا ماذا حدث لتيرى هذا الأسبوع».

«إنه يحاول أن يسترد ثقته هكذا فكرنا لكن الولد قال:

«إن هذا لا يثير اهتمامى. الشىء الوحيد الذى أحبه هو الألوان».

قلنا «تيرى فى متاهة».

قال الولد:

«كان هذا يوم الجمعة اليوم الأحد وما أحبه هو الألوان» قال ذلك بصوت بارد لا مبال خال من أى عاطفة.

حين عاد الآخر، قلنا:

«لقد ضعنا منذ ثلاثة أيام ولم نأخذ دقيقة واحدة راحة».

وقال واحد:

«حسناً لنسترح قليلاً، لكن دون أن نترك أيادينا».

جلسنا بدأت شمس غير مرئية تدفئ أكتافنا. لكن حتى حضور الشمس لم يثر اهتمامنا أحسسنا بها هناك، فى كل مكان، وقد فقدنا تماماً فكرة المسافة والزمن، والاتجاه. ومرت بنا عدة أصوات.

قلنا: «الكروانات نقرت عيوننا».

وقال أحد الأصوات:

«هؤلاء الناس يصدقون كلام الجرائد».

اختفت الأصوات وبقينا جالسين ، هكذا، كتفا لكتف، ننتظر ، مرور الأصوات، مرورالصور، ننتظر رائحة أو صوتاً معروفاً لنا أن يمر. كانت الشمس فوق رؤوسنا، ما تزال تدفئنا. ثم قال واحد:

«لنذهب تجاه الحائط مرة أخرى».

وقال الآخرون وهم بلا حراك ، وقد اتجهت رؤوسهم صوب النورغيرالمرئى:

«ليس بعد لننتظر حتى تبدأ الشمس تحرق وجوهنا».

أحدهم كان يفسد ترتيب هذه الورود

لما كان اليوم يوم أحد وقد توقف المطر ظننت أنى سآخذ باقة من الورود إلى قبرى. ورد أحمر وأبيض. من النوع الذى تزرعه لتزين به مذبح الكنيسة وأكاليل الزهر. خيم الحزن على الصباح بسبب هذا الشتاء الصامت الغامر الذى جعلنى أتذكرالهضبة الصغيرة المدورة حيث يترك أهل المدن موتاهم. أنه مكان عار بلا أشجار لا تكنسه إلا هبات الرياح التى ترسلها السماء. والآن وقد توقف المطر وجففت شمس الظهيرة المنحدر الطينى الزلق أستطيع أن أصل إلى القبر حيث يستقر جثمان طفلى وقد اختلط الآن وانتشر بين الجذور والقواقع.

إنها ساجدة أمام قديسيها. ظلت شاردة الذهن منذ أن توقفت عن التحرك فى الحجرة عندمافشلت فى المحاولة الأولى فى الوصول

إلى المذبح والتقاط أكثر الورود نضارة وأزهاها لونا. ربما كان فى إمكانى أن أفعل ذلك اليوم، لكن المصباح الصغير ينظر لى بعينين شاردتين وهى، وقد أفاقت من الوجد، رفعت رأسها ونظرت تجاه الركن حيث يوجد الكرسى. لابد أنها قالت لنفسها: «إنها الريح ثانية» لأن شيئاً ما أحدث صوتاً بجانب المذبح واهتزت الحجرة للحظة ، كما لو أن سطح الذكريات الراكدة فيها لزمن طويل قد تحرك. حينئذ أدركت أنه يتعين علىَّ أن أنتظر فرصة أخرى لآخذ الورود لأنها كانت ما تزال مستيقظة، تنظر إلى الكرسى، ولابد أنها سمعت صوت يدى بجانب وجهها. الآن على أن انتظر حتى تترك الغرفة وتذهب إلى غرفة مجاورة لتنام فترة القيلولة المعتادة يوم الأحد فى هذه الحالة ربما أستطيع أن أذهب بالورد وأرجع قبل أن تعود هى إلى هذه الحجرة وتظل تنظر إلى الكرسى.

يوم الأحد الماضى كان أكثر صعوبة كان على أن أنتظر ساعتين حتى تستغرقها حالة الوجد. بدت قلقة، مشغولة، كما لو أنها تعذبت إذ أيقنت أن عزلتها قد أصبحت فجأة يتهددها الخطر. راحت تدورحول الغرفة عدة مرات. وفى يدها باقة الورد، قبل أن تتركها على المذبح. ثم خرجت إلى المدخل، واستدارت، وذهبت إلى الغرفة التالية، أدركت أنها كانت تبحث عن المصباح وفيما بعد وحين مرت بالباب مرة ثانية ورأيتها فى ضوء المدخل بدثارها القاتم الصغير وجواربها القرنفلية اللون، بدا لى فى هذه اللحظة أنها هى نفسها الفتاة التى انحنت على سريرى منذ أربعين سنة فى نفس هذه

الحجرة وقالت: الآن وقد زرعوا أعواد القش فإن عينيك مفتوحتان وقاسيتان.. كانت هى نفسها ، كما لو أن الزمن لم يمض منذ عصر ذلك اليوم البعيد من أيام أغسطس حين جاءت بها النساء إلى الحجرة وأرينها الجثة وقلن لها: «ابكِ لقد كان مثل أخ لك» ومالت على الحائط ، تبكى، متمثلة ، وهى ما تزال مبتلة بماء المطر.

وأناأحاول الآن منذ ثلاثة أو أربعة أيام آحاد أن أدخل إلى حيث يوجد الورد، لكنها كانت يقظة أمام المذبح، ترقب الورد باجتهاد مشوب بالخوف لم أعرفه فيهاخلال العشرين سنة التى عاشتها فى البيت . وفى يوم الأحد الماضى، حين خرجت لتحضر المصباح حاولت أن أجمع باقة من أحسن الورود.

وكنت على وشك تحقيق رغبتى لكن ماأن شرعت فى العودة إلى الكرسى حتى سمعت خطواتها فى الممر مرة أخرى. فأعدت ترتيب الورد على المذبح بسرعة ثم رأيتها فى مدخل الباب وهى تمسك المصباح عاليا. كانت ترتدى دثارهاالقاتم الصغير وجواربهاالقرنفلية اللون. ولون وجهها كان متألقاً بنور كأنه نور الكشف الإلهى. لم تبد حينئذ أنها المرأة التى ظلت لعشرين عاماً تزرع الورد فى الحديقة، لكنها بدت نفس الطفلة التى جئ بها إلى الحجرة المجاورة، فى عصر ذلك اليوم من أغسطس البعيد، لتغير ملابسها وهاهى الآن تعود بالمصباح وقد زاد وزنها وتقدم بها العمر أربعين عاما.

ما تزال القشرة الطينية التى تشكلت حول حذائى عصر ذلك اليوم البعيد عالقة به رغم أنه جفف بجوار الموقد المطفأ لمدة أربعين

عاماً.

ذات يوم ذهبت لأخذ (حذائى) كان ذلك بعد أن أغلقوا الأبواب وأخذوا الخبز وغصن الصبارمن المدخل، وأخذوا الأثاث . كل الأثاث فيها عدا الكرسى فى الركن الذى كنت أجلس عليه طيلة هذا الوقت. وعرفت أن الحذاء قد وضع ليجف ولم يتذكره أحد حين هجروا البيت. لهذا السبب ذهبت لأخذه.

عادت بعد سنين عديدة زمن طويل مر حتى أن رائحة المسك فى الحجرة قد امتزجت برائحة التراب وأنفاس الحشرات الدقيقة. كنت وحيداً فى البيت، جالساً فى الركن، منتظراً. وقد تعلمت أن أميز صوت الخشب القديم، وارتعاشة الهواء فى حجرات النوم المغلقة . كان ذلك حين جاءت . وقفت فى الباب وفى يدها حقيبة ، مرتدية قبعة خضراء ونفس الدثار القطنى الصغير الذى لم تخلعه أبداً من ذلك الوقت. كانت ما تزال فتاة. لم يكن وزنها قد زاد ولم يكن كاحلاها قد تضخما تحت جوربها كما هما الآن كنت مغطى بالتراب وخيوط العنكبوت حين فتحت هى الباب وفى ركن ما من الحجرة صمت- صرصار الليل- الذى كان يغنى لمدة عشرين عاماً.

ولكن رغم هذا، رغم العنكبوت والتراب والصمت المفاجئ للصرصار والعمر الجديد للقادمة الجديدة، تعرفت فيها على الفتاة التى كانت قد ذهبت معي لنجمع الأعشاش من الإسطبل فى عصر ذلك اليوم العاصف من أيام شهرأغسطس البعيد. نفس الوضع الذى كانت فيه. واقفة فى مدخل الباب والحقيبة فى يدها والقبعة الخضراء

على رأسها، بدت كما لو أنها ستصبح فجأة وتقول نفس الشىء الذى قالته حين وجدونى ملقى على أرض الأسطبل المغطاة بالقش ممسكاً بيدى سياج السلم المحطم.

حين فتحت هى الباب أكثر أحدثت المفصلات صوتاً وسقط التراب من السقف كما لو أن شخصاً بدأ يضرب بمطرقة على سقف الحجرة، ثم وقفت صامتة على العتبة، وبعدها سارت إلى منتصف الغرفة، وبصوت كأنها تنادى شخصاً نائما قالت: «ولد : يا ولد!» وبقيت ساكناً فى الكرسى، جامداً ، وقدماى مشدودتان أمامى.

ظننت أنها جاءت فقط لترى الحجرة، ولكنها استمرت تعيش فى المنزل. فتحت نوافذ الغرفة للتهوية وبدا كأنها فتحت حقيبة يدها وانتشرت منها رائحة المسك القديمة. لقد أخذ الآخرون الأثاث والملابس فى صناديق. أما هى فلم تأخذ سوى روائح الحجرة، وبعد عشرين عاماً احضرتها ثانية، وضعتها فى مكانها، وأعادت بناء المذبح الصغير، تماماً كما كان من قبل.

كان وجودها وحيدة كافياً لبعث الحياة فيما دمرته صناعة الزمن العنيدة، منذ ذلك الوقت كانت تأكل وتنام فى الحجرة المجاورة، لكنها تقضى النهار فى هذه الغرفة، تتحادث فى صمت مع القديسين وبعد الظهيرة تجلس على الشبكة المعلقة الهزازة (1) المجاورة للباب وتصلح الملابس. وحين يأتى شخص ما ليأخذ باقة ورد. تضع النقود فى زاوية المنديل الذى تربطه بحزامها وبصوت لا يتغير تقول: «خذ الورودات التى على اليمين، أما التى عن الشمال فهى للقديسين».

هكذا كانت طوال عشرين عاماً ، في السرير الهزاز، ترفو أشياءها، تهتز ، تنظر إلى الكرسي كأنها الآن لم تكن ترعى الولد الذي شاركته أيام طفولتها لكنها ترعى الحفيد المريض الذي يجلس هنا دائما في الركن منذ ذلك الزمن حين جاءت جدته في الخامسة من عمرها.

والآن، حين تخفض رأسها ثانية أستطيع أن أصل إلى الورد وإذا استطعت ذلك فسوف أذهب إلى الهضبة الصغيرة المستديرة وأضع هذه الورود على القبر، وأعود إلى مقعدي لأنتظر اليوم الذي لا تعود فيه إلى الغرفة والذي تصمت فيه الأصوات في كل الحجرات.

في ذلك اليوم سيكون ثمة تغيير في كل هذا، لأنه سيتعين على أن أترك المنزل مرة أخرى لأخبر شخصاً ما أن سيدة الورد، المرأة التي تعيش في البيت المتداعي، في حاجة إلى أربعة رجال ليأخذوها إلى الهضبة الصغيرة المستديرة. حينئذ سأكون وحدي في الغرفة إلى الأبد. لكن ، من ناحية أخرى، ستكون راضية. ففي ذلك اليوم ستعلم أن الرياح غيرالمرئية لم تكن هي التي تجئ إلى مذبحها كل أحد وتفسد ترتيب الورود.

١- يستخدم هذا النوع من الشباك المعلقة للنوم في أماكن كثيرة بأمريكا الجنوبية.

الموت رابض وراء الحب

عندما وجد السناتور أو نسيمو سانشيز امرأة حياته كان أمامه ستة شهور وأحد عشر يوماً ليواجه موته ، قابلها فى روزال دل فيرى، وهى قرية قاسية تستخدم فى الليل كرصيف سرى لسفن مهربى البضائع، وفى النهارتبدو كأكثر الأماكن جذباً فى الصحراء. قرية تواجه البحر الذى كان قاحلاً وبلا اتجاه وبعيداً عن كل شىء حتى أن أحداً لا يمكنه أن يتخيل إمكانية تغيير مصير أى انسان يعيش هناك . حتى اسمها «روزال»(١) كان نكتة، لأن الوردة الوحيدة فى القرية كان يضعها السناتور أو نسيمو سانشيز فى عروة سترته فى نفس اليوم الذى قابل فيه لورا فارينا.

كان توقفا لا مفر منه فى الحملة الانتخابية التى يقوم بها كل أربع سنوات. وصلت عربات الموكب الكرنفال فى الصباح.

ثم جاءت اللوريات تحمل الهنود الحمر الذين استأجرهم ليزيدوا من عدد الجماهير عندما يلقى خطبه . وقبل الحادية عشرة بقليل وصلت عربة السناتور أو نسيمو سانشيز مصحوبة بالموسيقى والصواريخ المنطلقة فى الجو وعربات الجيب التى تحمل الحاشية كان السناتورهادئا آمناً داخل العربة المكيفة الهواء، لكنه ما أن فتح الباب حتى لفحته هبة من الهواء الملتهب وأحس أنه أوغل فى العمر سنوات كثيرة وأنه أشد وحدة عما كان عليه فى أى وقت من الأوقات. كان عمره الحقيقى اثنتين وأربعين سنة، تخرج فى جامعة جوتنجن بمرتبة الشرف كمهندس تعدين. وكان قارئاً نهما للكلاسيكيات اللاتينية سيئة الترجمة وأن كان لم يستفد كثيراً من هذه القراءات، كان متزوجا من امرأة ألمانية مشرقة أنجب منها خمسة أطفال وكانوا كلهم سعداء فى بيتهم، وكان هو أسعدهم جميعاً إلى أن أخبروه. منذ ثلاثة شهور، أنه سيموت إلى الأبد فى عيد الميلاد قادم.

وبينما يجرى استكمال الاستعدادات للحملة الانتخابية أراد السناتور أن ينفرد بنفسه ساعة فى المنزل الذى خصصوه كاستراحة له ،قبل أن يستلقى على سريره وضع الوردة التى احتفظ بها نضرة عبر الصحراء كلها، فى كوب ماء وتناول غذاءه بعضاً من الحبوب التى يحملها معه حتى يتجنب ما يقدم له دائما من لحوم الماعز المحمرة والتى تنتظره خلال باقى اليوم، وتناول أيضاً العديد من الأقراص المسكنة قبل موعدها المحدد وبهذا يأخذ السواء قبل أن يداهمه الألم.

ثم وضع المروحة الكهربائية قريبة من الهاموك[1] وتمدد عارياً مدة ربع ساعة فى ظل الوردة وهو يبذل جهداً كبيراً ليشغل نفسه حتى لا يفكر فى الموت وهو يغفو. لا أحد سوى الأطباء يعرف أنه محكوم عليه بالموت فى وقت محدد، لأنه عزم أن يحتفظ وحده بسره، وألا يغير من نمط حياته، ليس بدافع الكبرياء ولكن من باب الخجل.

أحس أنه يملك زمام نفسه تماماً حين ظهر أمام الناس مرة ثانية فى الساعة الثالثة بعد الظهر، بدا مستريحاً ونظيفاً وقد ارتدى بنطلوناً من الكتان الخشن وقميصاً مزيناً برسوم الأزهار، وروحه المعنوية مدعمة بالأقراص المضادة للألم. ومع ذلك فإن الموت كان يفعل فعله فى داخله أكثر مما توقع ، فما أن صعد إلى المنصة حتى أحس بازدراء غريب لهؤلاء الذين كانوا يصارعون الزحام ليحظوا بمصافحته. ولم يشعر بأسف كما حدث فى مرات أخرى تجاه جماعات الهنود الحفاة الذين تكتوى أقدامهم بسلع الجمر فى هذا الميدان الصغير القاحل. أسكت التصفيق حين لوح بيده بنوع من الغضب، وبدأ يتكلم دون أن يحرك يديه، كانت عيناه مثبتتين على البحرالذى كان يتنهد فيلفظ سخونة. وكان صوته العميق المتحكم فيه أشبه بالماء الهادئ، لكنه لم يشعر وهو يلقى الحديث الذى حفظه عن ظهر قلب والذى ألقاه مرات عديدة من قبل بأنه يقول الحقيقة كما يردد أقوالا لماركوس أورليوس من الجزء الرابع من كتاب «الإصلاح» بدأ يقول، على عكس ما يعتقد «إننا هنا من أجل أن نهزم الطبيعة، لن نكون بعد اليوم لقطاء فى بلدنا، يتامي الله فى مملكة العطش

الردئ ، منفيين فى أرضنا، سنكون أناسا مختلفين أيها السيدات والسادة ، لسوف نصبح شعباً عظيما وسعيداً».

وفيما هو يتكلم كان مساعدوه يلقون فى الهواء بمجموعات من الطيور المصنوعة من الورق وكأنما دبت الحياة فى المخلوقات الصناعية فتطير حول المنصة الخشبية ثم تتجه إلى البحر وفى نفس الوقت كان رجال آخرون ينقلون أشجاراً صناعية من العربات ويزرعونها فى التربة الصخرية خلف الجمع المحتشد. أقاموا واجهة كرتون رسموا عليها بيوتاً من الطوب الأحمر لها نوافذ زجاجية، وبهذه الواجهة غطوا أكواخ الحياة الحقيقية المزرية.

قدم السناتور لحديثه باقتباسين باللغة اللاتينية حتى يعطى وقتاً أطول لرجاله الذين ينصبون ديكورات المهزلة ثم قدم وعوداً لمستمعيه بأنه سيجلب لهم آلات لإسقاط المطر، وجهازا متنقلا يجعل الحيوانات عشاراً فتلد وتتكاثر الثروة الحيوانية، وزيوت السعادة التى تجعل الخضروات تنمو فى الأرض الصخرية وشتل البنفسج لتوضع تحت النوافذ. وعندما رأى أن عالمه الخيالى قد اكتمل، أشار إليه: «هكذا سنكون أيها السيدات والسادة، انظروا! هكذا سنكون».

تلفت الجمهور حوله. كانت عابرة محيطات مصنوعة من الورق الملون تمرخلف البيوت وكانت أطول من أطول بيت فى المدينة المزيفة. السناتور وحده هو الذى لاحظ تآكل هذه المدينة الكرتونية بفعل نقلها وحملها من مكان لآخر وبسبب الجو المرعب أيضا وأنها أصبحت متربة وبائسة مثل قرية روزال دل فيرى.

لأول مرة خلال اثنى عشرعاماً لم يذهب نلسون فارينا لتحية السناتور. استمع إلى الحديث وهو مستلق فى أرجوحته الشبكية أثناء نومة القيلولة تحت العريشة، فى بيته الذى بناه من ألواح الخشبة بيديه، نفس اليدين اللتين خنق بهما زوجته الأولي وقسمها إلى أجزاء أربعة هرب من «جزيرة الشيطان» ثم ظهر فى روزال دل فيرى على سفينة محملة بالببغاوات البريئة، مع امرأة سمراء جميلة وساحرة وجدها فى باراماريبو وأنجب منها بنتاً. ماتت المرأة ميتة طبيعية بعد وقت قصير ولم تواجه مصير المرأة الأولى التى خضبت أجزاؤها قطع القماش التى لفت بها، إنما دفنت هذه كاملة وكتب اسمها فى المقبرة المحلية. ورثت الابنة لونها وجمالها وعيون والدها الصفراء الدهشة، وكان له الحق فى أن يعتقد أنه يربى أجمل امرأة فى العالم.

منذ أن قابل السناتورأو نسيمو سانشيرز لأول مرة أثناء حملته الانتخابية الأولى توسل إليه نلسون فارينا أن يساعده فى الحصول على بطاقة شخصية مزورة بحيث لا تطوله يد القانون رفض السناتور بطريقة ودية لكن حاسمة لكن نلسون فارينا لم يستسلم، ولسنوات عدة، وكلما سنحت الفرصة، كان يكرر طلبه بطريقة مختلفة أما هذا المرة فقد بقى فى أرجوحته الشبكية وقد حكم عليه أن يتعفن حيا فى عرين قراصنة السياسة. حين سمع التصفيق النهائى، رفع رأسه ، ونظر من فوق سور بيته الخشبى فرأى الجانب الخلفى للملهاة: المبانى الورقية، والأشجار الصناعية، والاشخاص المختبئين الذين كانوا يحركون عابرة المحيطات. لصق على الارض دون حقد:

«اللعنة على هذه الدعارة السياسية» بعد الخطاب. كماهى العادة، أخذ السناتور يتمشى خلال شوارع المدينة وسط الموسيقى والصواريخ يحاصره أهل المدينة بشكاواهم. أنصت السناتور إليهم بأدب وكان دائما يجد طريقة يرضى بها كل شخص دون أن يقدم لهم شيئاً يذكر. زعقت امرأة وهى فوق سطح بيتها مع أطفالها الستة، زعقت بصوت عال ليطغى على أصوات الحشد وطلقات الصواريخ: «إنى لا أطلب الكثير أيها السناتور، فقط أريد حماراً لنقل الماء من «بئرالمشنوق».

لاحظ السناتور الأطفال الستة نحيلى الجسد. سألها: «ما أخبار زوجك؟».

أجابت المرأة بمرح: «ذهب يجرب حظه فى جزيرة أروبا، وكان من حظه أن وجد امرأة أجنبية من نوع النساء اللائى يضعن ماساً على أسنانهن» وأثارت إجابتها عاصفة من الضحك.

قال السناتورمؤكداً: وهو كذلك، ستحصلين على حمار».

بعد برهة قصيرة أحضرأحد اعوانه حماراً ظريفاً إلى منزل المرأة وعلى ردفيه كتبت شعارات الحملة الانتخابية بطلاء لا يزول حتى لا ينسى أحد أنه كان هدية من السناتور.

على طول الشارع الصغير قام السناتور بعدة «حركات» صغيرة أخرى، حتى أنه قدم ملعقة دواء لرجل مريض نقلوا سريره أمام باب بيته ليرى الموكب. وفى آخر ناصية، ومن خلال خشب السور، رأى نلسون فارينا فى أرجوحته، وكان يبدو شاحباً وحزيناً، وحياه

السناتور ببرود:

«أهلا ، كيف حالك؟»

استدارنلسون فارينا فى أرجوحته وبنظرة صفراء أجابه بالفرنسية:

«أنا، .. أنت تعرف».

خرجت ابنته إلى الساحة حين سمعت التحية. كانت ترتدى رداء هندياً من قماش رخيص شاحب اللون، وكان شعرها مزيناً بحلقات ملونة، وكانت تضع على وجهها دهاناً ضد الشمس، ومع ذلك كان بإمكان المرء أن يتخيل أنه لا توجد فى العالم امرأة أخرى أجمل منها صعق السناتور لهذا الجمال وتمتم «على اللعنة!.. إن الله يعمل أكثر الأشياء جنوناً» فى تلك الليلة ألبس نلسون فارينا ابنته أحسن ملابسها وأرسلها إلى السناتور.

على مدخل المنزل حارسان مسلحان بالبنادق أعياهما الحر فمال رأساهما نعساً: أمراها أن تنظر على الكرسى الوحيد فى المدخل.

كان السناتور فى الحجرة المجاورة فى مقابلة مع الناس المهمين فى روزال دل فيرى جمعهم ليقول لهم الحقائق التى أغفلها فى خطبته كانوا مثل أولئك الذين يقابلهم فى كل مدن الصحراء حتى أن السناتور نفسه أصابه القرف والتعب من هذا المجلس الليلى الدائم. كان قميصه يرشح بالعرق وكان يحاول أن يجففه على جسمه بالهواء الساخن الذى تدفعه مروحة كهربائية كانت تئز مثل ذبابة ضخمة فى جو الحجرة المثقل بالحرارة.

قال السناتور: بالطبع نحن لا يمكننا أن نأكل طيورا من الورق. أنتم وأنانعرف أن اليوم الذى توجد فيه أشجار وزهور على هذه الكوم من الروث، اليوم الذى يوجد فيه سمك بدلا من الدود فى حفرات المياه، فى هذا اليوم لا أنتم ولا أنا سيكون لنا عيش هنا. هل عبرت عن نفسى بوضوح؟»

لم يجب أحد. وفيما هو يتحدث نزع السناتور ورقة من نتيجة الحائط وعمل منها فراشة بيديه قذف بها ، دون هدف معين، فى تيارالهواء القادم من المروحة وطارت الفراشة فى الحجرة ثم خرجت عبر الباب نصف المفتوح. استمرالسناتور فى الحديث: «ولهذا، لا أحتاج لأن أكرر لكم ماتعرفونه جيداً: إن إعادة انتخابى فيه مصلحة لكم أكثر من مصلحتى أنا، لأنى شبعت من المياه الراكدة ورائحة العرق الهندى، بينما أنتم من ناحية أخرى تعيشون حياتكم من هذا».

رأت لورا فارينا الفراشة الورقية تخرج من الحجرة. وكان الحارسان فى الداخل قد ناماعلى السلم. بعد عدة دورات انفرطت الفراشة الورقية والتصقت بالحائط، حاولت لورا فارينا نزعها بأظافرها. استيقظ واحد من الحارسين على صوت التصفيق القادم من الحجرة المجاورة ورأى محاولتها الفاشلة. قال وهو نصف نائم: «لن تخرج، أنها مطبوعة على الحائط».

جلست لورا فارينا عندما بدأ الرجال يخرجون من الاجتماع وقف السناتور فى مدخل الحجرة ويده على المزلاج ولم يلحق لورا فارينا ألا حين أصبح مدخل البيت خاليا من الناس.

- «ماذا تفعلين هنا؟» أجابت بالفرنسية:

- «هذا خاص بأبى».

فهم السناتور. دقق النظر فى الحارسين النائمين، ثم دقق النظر فى لورا فارينا، وكان جمالها الصارخ أقوى من ألمه ، وتيقن حينئذ أن الموت قد اتخذ قراره.

قال لها:

(تعالى)

صعقت لورا فارينا وهى واقفة فى مدخل الحجرة: فقد رأت ألافا من أوراق البنكنوت تطير فى الهواء، ترفرف مثل الفراشات. لكن السناتور أوقف المروحة فتركت الأوراق النقدية بلاهواء واستقرت على أثاث الحجرة.

- هكذا ترين ، حتى النقود تطير.

جلست لورا على المقعد الصغير، كان جسمها الأسمرناعما وصلبا وشعرها مثل عرف فرس شابة، وكانت عيناهاالكبيرتان أشد لمعانا من الضوء تتبع السناتورنظرة عينيها وقد استقرت على الوردة التى كانت قد تلوثت بالملح الصخرى.

قال:

- «إنهاوردة».

ردت بشىء من الارتباك.

- «نعم تعلمت أشياء عن الورد فى ريوهاشا».

جلس السناتورعلى سرير له مساند، وهو يتحدث عن الورد فيما

كان يفك أزرار قميصه. على جانب صدره حيث تخيل أن قلبه موجود بالداخل كان ثمة وشم: قلب يخترقه سهم . ألقى بالقميص المبلول بالعرق على الأرض وطلب من لورافارينا أن تساعده فى خلع حذائه. انحنت فى مواجهة السرير. ظل السناتور يمعن النظر إليها فى تأنٍ، وفيما هى تحل رباط حذائه تساءل، فى نفسه، أى الرباطين سيضع حدا للحظ السيء فى هذه المقابلة. قال:

– «ما أنت إلا طفلة».

– «لا تصدق هذا. سأبلغ التاسعة عشرة فى أبريل».

– «فى أى يوم؟».

– «الحادى عشر».

أحس السناتوربارتياح وأضاف مبتسما:

– «نحن الاثنين من برج الحمل». ثم أضاف.

«إنهاعلامة الوحدة».

لم تلتفت لورا للجملة الأخيرة لأنها لم تكن تدرى ماذا تفعل بالحذاء. والسناتور بدوره لم يكن يدرى ماذا يفعل بلورالأنه لم يكن معتادا على ممارسة الحب بهذا الشكل الفجائى، وإلى جانب هذا، فهو يعرف أن تلك التى معه الآن لها جذور ضاربة فى المعاملات المهينة. ولكى يكسب بعض الوقت للتفكير ، أمسك بلورا باحكام بين ركبتيه، وحضنها من عند خصرها، واستلقى بظهره على السرير. تأكد انها عارية تحت ثوبها، لأن جسمها كان يعطى شذا غامضاً لحيوان فى الغابة، لكن قلبها كان يدق بعنف وبشرتها مبللة بالعرق

البارد.

قال متنهدا:

«لا أحد يحبنا».

حاولت لورا فارينا أن تقول شيئاً، لكن الهواء لم يكن كافيا لشيء سوى لأن تتنفس. أرقدها بجانبه لتستريح. وأطفأ النور وصارت الغرفة فى ظل الوردة. تركت نفسها تحت رحمةالقدر.

راح السناتوريتحسسها ببطء، يبحث بيديه برقة شديدة، لكن فى المكان الذى توقع أن يلمس فرجها اصطدمت يده بشيء حديدى.

– «ماذا؟»

– «قفل».

قال السناتور بغضب

– يا للجحيم»، ثم سأل السؤال البديهى: «وأين المفتاح؟».

تنفست لورا بارتياح ثم أجابت: مع «أبى. قال لى أن أخبرك أن ترسل واحدا من رجالك ليأخذ المفتاح وتبعث معه وعدا مكتوبا بأنك ستحل مشكلته».

بدا التوتر على السناتور وتمتم «الضفدعة ابن الزانية».

ثم أغلق عينيه حتى يسترخى، وواجه نفسه فى الظلام:

«تذكر، مهما كنت ، فلن يمر وقت طويل حتى تموت، ولن يمر وقت طويل حتى يختفى اسمك أيضاً».

انتظرحتى تذهب الرجفة.

ثم سألها:

- «قولى لى شيئاً واحداً، ماذا سمعت عنى؟»:
- «هل تريد الحقيقة لوجه الله؟»
- «الحقيقة لوجه الله».

قالت لورا مخاطرة:

- «حسناً، يقولون إنك أسوأ من الباقين لأنك مختلف».

لم يتكرالسناتور، ظل صامتا لوقت طويل وعيناه مغلقتان، وحين فتحهما بدا أنه عاد من أعماق كهوف غرائزه.

- «أوه ياللجحيم، قولى لأبيك ابن الزانية إننى سأحل مشكلته».

فقالت لورا فارينا:

«اذا أردت، استطيع أن أذهب بنفسى لاحضار المفتاح».

أمسك بها السناتور.

«أنسى المفتاح ونامى معى قليلا. أنه شىء طيب أن تكونى مع أحد وأنت وحيدة».

ثم أنامت رأسه على كتفها وعيناها مثبتتان على الوردة. أمسك السناتور بخصرها، أغرق وجهه فى أبط الحيوان البرى واستسلم للرعب. بعد ستة شهور وأحد عشر يوما سيموت فى نفس الوضع، محقرا مهانا بسبب الفضيحة مع لورا فارينا، باكيا بغضب عندما يموت وهى ليست معه.

١- روزال تعنى الوردة.

٢- أرجوحة شبكية معلقة تستخدم للنوم فى أماكن كثيرة من امريكا اللاتينية.

فتح الباب فى تلك الساعة لم يكن هناك أحد فى مطعم خوسيه. منذ لحظات دقت الساعة السادسة والرجل يعرف أن الزبائن المنتظمين لن يبدأوا فى الوصول حتى السادسة والنصف . كانت زبونته محافظة ومنتظمة فى مواعيدها فلم تكد الساعة تنهى دقاتها الست حتى دخلت امرأة. جاءت فى موعدها اليومى الثابت وجلست على المقعد دون كلمة كانت تضع بين شفتيها سيجارة غير مشتعلة.

«أهلاً بالملكة». هكذا قال خوسيه حين رآها تجلس. ثم ذهب إلى الطرف الآخر من المنضدة الرخامية للبار. يمسح السطح المخطط بقطعة قماش جافة. كلما جاء أحد يفعل خوسيه نفس الشىء. حتى مع المرأة التى صار بينه وبينها نوع من الألفة والود. كان خوسيه

صاحب المطعم، الممتلئ المتورد الوجه ، حريصاً على أن يبدو جم النشاط لا يكف عن العمل. تحدث وهو عند الطرف الآخرمن الطاولة الرخامية:

- «ماذا تريدين اليوم»؟

- «أول شيء أريد أن أعلمك كيف تكون رجلاً مهذباً».

كانت تجلس فى نهاية المقاعد ومرفقاها على الرخامة والسيجارة المطفأة بين شفتيها.

قالت خوسيه:

- «لم ألاحظ».

- «إنك لم تتعلم أن تلاحظ أى شيء».

ترك الرجل قطعة القماش على الرخامة ومشى تجاه البوفيه الخشبى المعتم الذى تنبعث منه رائحة القار والتراب، وعاد ومعه الكبريت مالت المرأة لتشعل سيجارتها من يده المغطاة بالشعر. ورأى خوسيه شعرالمرأة الغزير مدهونا بالفازلين الرخيص رأى كتفيها العاريتين وحمالة ثدييها المنقوشة بالأزهار. حين رفعت المرأة رأسها رأى بداية ثدييها بلون الشفق، وكانت السيجارة مشتعلة بين شفتيها الآن.

قال خوسيه:

«إنك جميلة الليلة أيتها الملكة».

- «كف عن هذاالهراء. لاتظن أن هذا يجعلنى أدفع لك».

- «لا أعنى هذا يا ملكة. أراهن أن الغذاء لم يعجبك اليوم».

جذبت المرأة نفساً عميقا من سيجارتها، وشبكت ذراعيها، ومرفقاها ما يزالان على الرخامة، وظلت تنظر إلى الشارع من نافذة المطعم الواسعة. كانت تبدو مكتئبة. إكتئابا مضجرا وفجا.

قال خوسيه:

- «سأجهز لك قطعة لحم ممتازة».

- «ما زلت لا أملك أى نقود».

- «لم يكن معك أى نقود طوال شهورثلاثة ودائما أجهز لك شيئاً ممتازاً».

قالت المرأة برنة حزن وهى ماتزال تنظر إلى الشارع:

- «اليوم مختلف».

- «كل يوم نفس الشيء، كل يوم تدق الساعة السادسة وحينئذ تدخلين وتقولين إنك جائعة مثل كلب وأنا أجهز لك شيئاً ممتازاً». الفرق الوحيد اليوم هو أنك لم تقولى «أنا جائعة مثل كلب» ولكن قلت إن اليوم مختلف».

قالت المرأة:

- «وهذا صحيح». ثم استدارت لتنظر إلى الرجل الذى كان عند الطرف الآخر من الطاولة الرخامية يفحص ما فى الثلاجة . ركزت عليه نظرها لثانيتين أو ثلاث. ثم نظرت إلى الساعة فوق البوفيه. كانت السادسة وثلاث دقائق. «صحيح يا خوسيه أن اليوم مختلف». نفثت دخان السيجارة ثم واصلت حديثها بلهجة حازمة متقدة: «اليوم لم أحضر فى السادسة. هذا هو الفرق ياخوسيه».

نظر الرجل إلى الساعة وقال:

«أقطع ذراعى لو كانت هذه الساعة متأخرة دقيقة واحدة».

قالت المرأة:

«ليست الساعة ياخوسيه. أنالم أجئ فى الساعة السادسة اليوم».

قال خوسيه:

– «لقد دقت السادسة الآن يا ملكة.حين دخلت كانت تنهى دقاتها».

قالت المرأة:

– «منذ ربع ساعة وأناهنا».

مشى خوسيه إلى حيث تجلس المرأة وضع وجهه الضخم اللاهث فى مواجهة المرأة وهو يشد أحد جفنيه بسبابته. قال:

«انفخى هنا».

أمالت المرأة رأسهاإلى الوراء ،كانت جادة متضايقة، منهكة، اضفى عليها التعب والحزن مسحة من الجمال.

– «كف عن سخافتك ياخوسيه. أنت تعرف أنى لم أشرب منذ ستة شهور».

– «قولى هذا لشخص غيرى، ليس لى ، أراهن أنك شربت ثمناأو ثمنين على الأقل».

– «شربت كأسين مع صديق».

– «آه. الآن فهمت».

– «ليس هناك شيء تفهمه . أنا هنا من ربع ساعة».

هز الرجل كتفيه وقال:

– «طيب، إذا كان هذا ما تريدين فأنت هنا من ربع ساعة . ولكن ماالفرق. عشر دقائق هناك أوعشر دقائق هناك»؟.

قالت المرأة:

– ثمة فرق يا خوسيه». وفردت ذراعيها على المائدة الزجاجية وهى تبدو منهكة غيرمبالية. وأكملت :« ليست الحكاية أننى أريد ذلك، إنما أناجئت إلى هنا من ربع ساعة».

نظرت إلى الساعة مرة ثانية وصححت نفسها: «ماأقوله- أننى جئت هنا منذ عشرين دقيقة».

قال الرجل:

«تماماً يا ملكة .أوافقك حتى على أربع وعشرين ساعة لأراك سعيدة فقط».

خلال كل هذا الوقت كان خوسيه يتحرك وراء المائدة، يغير أشياء ، يأخذ شيئاً من مكان ويضعه فى مكان آخر. كان يلعب دوره. كرر جملته:

«أريد أن أراك سعيدة» توقف فجأة متجها إلى حيث تجلس المرأة:

«هل تعرفين أننى أحبك للغاية».

نظرت المرأة إليه ببرود:

– «نعم؟ ياله من اكتشاف ياخوسيه. هل تظن أننى أذهب معك ولو بمليون بيزو؟

- «لا اعنى هذا ياملكة. أكرر أننى أراهن أن الغذاء لم يعجبك».

قالت المرأة وقد صار صوتها أكثر استرخاء.

«ليس هذا السبب. لاتوجد أمرأة تستطيع تحمل وزن شخص مثلك، حتى ولو بمليون بيزو».

إحمرّ وجه خوسيه. أدار ظهره للمرأة وبدأ ينفض التراب من على الزجاجات فوق الرفوف. تحدث دون أن يدير رأسه:

«إنك غير محتملة اليوم ياملكة. أظن أن أحسن شيء لك أن تأكلى قطعة من اللحم المشوى وتروحى لتنامى».

قالت المرأة: «أنا لست جائعة» راحت تنظر إلى الشارع مرة أخرى ترقب المارة فى المدينة المقبلة على الإظلام. للحظة كان ثمة صمت ضبابى فى المطعم لايقطعه سوى عبث خوسيه فى دولاب الأطباق. فجأة كفت المرأة عن النظر إلى الشارع وتحدثت بصوت مختلف، رقيق وخافت:

«هل تحبنى حقا يابيبلو»؟

رد خوسيه بجفاء دون أن ينظر إليها:

- نعم».

- «رغم كل ما قلته لك؟».

- «ماذا قلت لى»؟ هكذا سأل خوسيه دون أى تعبير فى صوته ودون أن ينظر إليها أيضا.. قالت المرأة:

- «ذلك الكلام عن مليون بيزو».

قال خوسيه:

«لقد نسيته تماما»

سألت المرأة:

«إذن فأنت تحبنى»؟

- «نعم»

سادت لحظة صمت.. مازال خوسيه يتحرك ووجهه تجاه الأدراج ولاينظر إلى المرأة. نفثت دخان سيجارتها وارتكزت بصدرها على الطاولة ثم راحت تتحدث بحرص ولؤم وهى تعض لسانها قبل أن تتكلم كأنها تتحدث على أطراف أصابع قدميها:

«حتى لو لم تذهب معى إلى الفراش»؟

هنا فقط استدار خوسيه لينظر إليها، وقال:

«إنى أحبك حبا جما لدرجة انى لا أنوى الذهاب معك إلى الفراش».

ثم مشى الى حيث تجلس. وقف ينظر إلى وجهها، وذراعاه القويتان على الطاولة أمامها. قال وهو ينظر إلى عينيها:

«أحبك بجنون حتى أنى كل ليلة أوشك أن أقتل الرجل الذى يذهب معك».

للوهلة الأولى بدت المرأة مرتبكة. ثم نظرت الى الرجل باهتمام، بتعبير يتردد بين الحنو والشفقة والسخرية. مضت لحظات صمت مشتتة. ثم ضحكت بصوت عال:

«أنت غيور ياخوسيه. هذا شىء همجى، أنت غيور».

مرة أخرى إحمر وجه خوسيه خجلا كطفل كشف عن كل أسراره

فجأة . قال:

«يبدو أنك لا تفهمين شيئاً هذا المساء يا ملكة». ومسح نفسه بقطعة القماش ثم قال:

«هذه الحياة السيئة تجعلك وحشية».

لكن المرأة غيرت الآن من تعبيرات وجهها. قالت:

«هكذا، إذن». ونظرت فى عينيه مرة أخرى، بوهج غريب فى نظرتها المضطربة والمتحدية فى نفس الوقت.

– «اذن فأنت لست غيوراً»

– «بشكل ماأنا غيور. لكن ليس بالشكل الذى تظنينه».

وحرك ياقته واستمر بمسح نفسه وجفف رقبته بقطعة القماش.

سألت المرأة:

– «هكذا» ؟.

– «الحقيقة أننى أحبك بجنون حتى أننى أكره ماتفعلينه».

– «ماذا»؟

– «عملك هذابالذهاب مع رجل مختلف كل يوم».

– «هل حقيقة يمكنك أن تقتله حتى تمنعه من الذهاب معى»؟.

– «لا لأمنعه من الذهاب معك، لا، اننى أقتله لأنه ذهب معك».

– «إنه نفس الشىء».

وصلت المناقشة الى نقطة مثيرة. كانت المرأة تتحدث بصوت خفيض رقيق ومثير وكانت تسدد نظراتها إلى وجه الرجل المسالم وهو يقف بلا حراك كما لو أن كلماتها قد سحرته. قال خوسيه:

– «هذا صحيح».

مدت المرأة يدهالتخبط على ذراع الرجل الخشن وباليد الأخرى ألقت بعقب سيجارتها وهى تقول:

– «اذن فأنت تستطيع قتل رجل»؟.

رد خوسيه وقد اكتسى صوته بنبرة درامية:

– «من أجل ماقلته لك، نعم».

انفجرت المرأة فى ضحكة مزلزلة هازئة:

– «يا له من أمرمؤسف يا خوسيه. خوسيه يقتل رجلا. من كان يعرف أن وراء الرجل البدين البادى التقوى الذى يقدم لى الطعام دون أن يجعلنى أدفع ثمنه، الذى يطبخ لى كل يوم شريحة لحم ويتحدث معى بظرف حتى أجد رجلا، من يصدق أن وراء هذا كله يكمن قاتل. يا للفظاعة يا خوسيه! إنك ترعبنى»!.

ارتبك خوسيه. ربما أحس بالإهانة بعض الشىء. ربما أحس، حين بدأت المرأة تضحك ، أنه ضحية. نوع من الاحتيال. قال:

«إنك سكرى وسخيفة، اذهبى ونامى. إنك حتى لا تريدين أن تأكلى».

لكن المرأة توقفت عن الضحك وأصبحت جادة مرة أخرى، واعترتها موجة من التأمل الحزين وهى تميل على المائدة الرخامية. راقبت الرجل وهو يبتعد رأته يفتح الثلاجة ويغلقها ثانية دون أن يأخذ أى شىء ثم رأته يتحرك إلى الطرف الثانى من المائدة. راقبته وهو يمسح الأكواب اللامعة، كما فعل فى البداية. ثم تحدثت المرأة

ثانية بنفس الصوت الرقيق الخفيض حين قالت: «هل تحبنى حقا يا بيبلو؟.

- «خوسيه»!

لم ينظر الرجل إليها.

- «خوسيه»!..

- «اذهبى ونامى. وخذى حماما قبل أن تذهبى إلى الفراش حتى تستطيعى النوم».

- «صحيح ياخوسيه. أنا لست مخمورة».

- «إذن فقد اصبحت غبية».

- «تعال هنا، أريد أن أتحدث معك».

جاء الرجل مرتبكا، فى حالة بين السرور وعدم الثقة.

«اقترب»!.

وقف أمام المرأة مرة أخرى. مالت إلى الأمام، أمسكته من شعره، لكن بطريقة تفصح عن الود والدلال.

- «أعد علىَّ ما قلته فى البداية».

- «ماذا تقصدين؟» وكان يحاول أن ينظر إليها ورأسه متجه بعيدا وهى ممسكة بشعره.

قالت المرأة:

- «أنك سوف تقتل الرجل الذى ذهب معى إلى الفراش».

- «سأقتل الرجل الذى ذهب معك إلى الفراش يا ملكة. هذا صحيح».

تركت المرأة شعره.

- «إذن فأنت سوف تدافع عنى أذا قتلته، اليس كذلك؟»؟

هكذا سألته وهى تدفع برأسه الخنزيرى بغنج أنثوى وحشى.

لم يجب الرجل بشىء. ابتسم.

- «أجبنى ياخوسيه. هل تدافع عنى أذا قتلته؟».

- «هذا يتوقف على الظروف. تعلمين أن الأمر ليس سهلا كماتقولين».

- «الشرطة لن تصدق أحدا أكثر مماتصدقك أنت».

ابتسم خوسيه فى زهو ورضا. مالت المرأة تجاهه مرة أخرى على المائدة.

- «هذا صحيح يا خوسيه. أراهن إنك لم تكذب طول حياتك».

- «لن تنالى شيئاً بهذه الطريقة».

- «الشرطة تعرفك، وسوف يصدقون أى شىء تقوله دون أن يكرروا السؤال».

بدأ خوسيه يضرب المائدة بيده، لا يدرى ماذا يقول.

نظرت المرأة إلى الشارع مرة أخرى. ثم نظرت إلى الساعة وغيرت من نغمة صوتها كما لو كانت راغبة فى إنهاء النقاش قبل أن يصل أول زبون سألت:

- «هل تكذب من أجلى»؟.

نظر إليها خوسيه مرة أخرى نظرة جادة وعميقة كأن فكرة هائلة قد طرقت رأسه. فكرة دخلت من إحدى أذنيه، ودارت بسرعة غامضة

مضطربة، ثم خرجت من أذنه الأخرى، تاركة وراءها إحساسا بالرعب فحسب.

سأل خوسيه.

«ما الذى تورطت فيه يا ملكة؟» ومال إلى الأمام مادا ذراعيه على المائدة مرة أخرى. أحسست المرأة بأنفاسه المشبعة برائحة النشادر. وكأن رخام المائدة يضغط على بطنه فيزداد تنفسه صعوبة.

سأل:

«هذا أمر خطير حقيقة يا ملكة. فى أى شىء ورطت نفسك؟»

أدارت المرأة رأسها للاتجاه الآخر وقالت:

- «لا شىء، فقط كنت أتحدث لأسلى نفسى».

ثم نظرت إليه مرة أخرى.

- «هل تعتقد إنك لا تستطيع قتل أى شخص؟».

رد خوسيه:

« انا لم أفكر فى قتل أى شخص».

- «لا يا رجل، أعنى أى واحد يذهب معى إلى الفراش».

- «أوه! دائما كنت أرى أنك لست بحاجة إلى هذا العمل. أؤكد لك أنك اذا توقفت عن كل هذا سأعطيك أكبر قطعة لحم يوميا وبلا مقابل».

- «شكرا يا خوسيه. ليس هذا هو السبب. إنما لأننى لا استطيع أن أذهب إلى الفراش مع أى واحد بعد الآن».

قال خوسيه وقد بدأ يفقد صبره:

- «إنك تخلطين الأمور مرة أخرى»

- «إنى لا أخلط فى أى شىء».

قالت المرأة ذلك ثم مددت جسمها على الكرسي ورأى خوسيه ثدييها المنبسطين الحزينين تحت حملات صدرها.

- «غدا سأرحل وأعدك أنى لن ارجع وأضايقك أبدا بعد ذلك. أعدك أنى لن أذهب إلى الفراش مع أى واحد».

- من أين جاءتك تلك الحمية؟».

- «لقد عزمت منذ دقيقة واحدة. منذ دقيقة واحدة فقط تحققت من أنها مهنة قذرة».

أمسك خوسيه بقطعة القماش مرة ثانية وبدأ ينظف الزجاج أمامها. تحدث دون أن ينظر إليها:

«بالطبع فان ما تفعلينه عمل قذر. كان عليك أن تدركى ذلك منذ وقت طويل».

- «كنت أعرف هذا منذ وقت طويل. ولكنى لم أقتنع إلا منذ برهة قصيرة. أن الرجال يحتقروننى».

ابتسم خوسيه. رفع رأسه لينظر إليها، وما زال يبتسم، لكنه رآها مرتبكة تتحدث وهى ترفع كتفيها، تدور على المقعد بجسدها، وقد اكتسى وجهها بعلامات الكبر المبكر:

- «ألا تظن أنهم يجب أن يطلقوا سراح المرأة التى تقتل رجلا لأنها بعد أن نامت معه أحسست بالقرف منه ومن كل من كان معها؟»

أجابها خوسيه وفى صوته خيط من اليأس:

– «ليس هناك ما يدعو إلى الذهاب بعيدا هكذا».

– «ماذا لو قالت المرأة للرجل إنه يحتقرها بينما هى ترقبه يرتدى ملابسه لأنها تذكرت أنها كانت تتلوى معه على السرير طوال بعد الظهر وتشعر أن لا الصابون ولا الاسفنج يمكنهما أن يزيلا رائحته؟.

قال خوسيه دون اهتمام كبير الآن، وهو يلمع رخامة البار: «كل هذا بعيد عن الموضوع يا ملكة، ليس هناك سبب لأن تقتليه، فقط دعيه يذهب».

لكن المرأةاستمرت فى الكلام وكان صوتها ينساب هادئاً عاطفياً.

– «لكن ماذا لو قالت له المرأة: إنه يحتقرها وتوقف الرجل عن ارتداء ملابسه واندفع نحوهامرة ثانية يقبلها، ويفعل؟..– «ليس هناك رجل مهذب يفعل ذلك».

– ماذا لو فعل» سألت المرأة بقلق وسخط ثم واصلت:

«ماذا لو كان الرجل غيرمهذب وفعلها وعندئذ تشعر المرأة أنه يحتقرها للغاية حتى أنها يمكن أن تموت، وهى تعرف أن الطريقة الوحيدة لوضع حد لكل شىء أن تطعنه بسكين؟.

– «هذا شىء فظيع. من حسن الحظ أنه لا يوجد رجل يفعل ما تقولين عنه».

– «حسناً، قالت المرأة وهى فى قمة سخطها الآن «. ماذا لو

فعل؟ افترض انه فعل».

– «على أى حال فهذا أمر ليس سيئاً للغاية».

قال خوسيه ذلك واستمر ينظف الرخامة دون أن يغير موضعه ، وبدا أقل اهتماما بالمناقشة الآن. خبطت المرأة على الرخامة بمفاصل أصابعها وقد زاد توترها وتحفزها.

– «أنت متوحش ياخوسيه. أنت لا تفهم أى شىء». وشدت كمه بعنف «تعال، قل لى أن المرأة يجب أن تقتله».

«أوكى». قالت خوسيه يسترضيها «ربما كان ما تقولينه هو السليم».

– «أليس هذا دفاعا عن النفس؟ وقالت المرأة وهى تشد كمه.

هنا نظر إليها خوسيه نظرة راضية:

– « غالبا، غالبا، ثم غمزها بعينيه معبرا عن فهمه وتعاطفه معها.

لكن المرأة كانت جادة. ابتعدت عنه.

– «هل يمكنك أن تقول كذبة لكى تدافع عن امرأة فعلت هذا؟.

– «هذا يتوقف على..».

– « يتوقف على ماذا؟».

– «يتوقف على المرأة».

– «افترض أنهاالمرأة التى تحبها كثيرا، لا تنام معها، لكن، مثل ، ما تقول، تحبها كثيراً».

– «أوكى.. أى شىء تقولينه يا ملكة فهو صحيح».

ابتعد مرة ثانية. نظر إلى ساعة الحائط. رأى أنها تقترب من

السادسة والنصف فكر أنه خلال دقائق ليلة سيمتلئ المطعم بالناس، وربما كان هذا هو السبب في أنه بدأ يلمع الزجاج بحماس أكبر، ناظرا إلى الشارع من خلال النافذة . ظلت المرأة على مقعدها صامتة، مركزة ترقب حركات الرجل بحزن.

فجأة تكلمت مرة ثانية بصوت مداهن ذليل:

– «خوسيه»!

نظر الرجل إليها برقة وحزن كثور ينظر إلى ابنه لم ينظر إليها ليستمع لها، بل فقط لينظر إليها ليعرف انها هنا، تنتظر منه نظرة لا هى نظرة حماية ولا تضامن إنما فقط كأنك تنظر إلى لعبة.

– «قلت لك إنى راحلة غدا وأنت لم تقل أى شيء».

– «نعم. لم تقولى لى إلى أين».

– بعيداً حيث لا يوجد رجال يريدون أن يناموا مع أحد».

ابتسم خوسيه ثانية. سأل:

– «هل حقيقة سترحلين؟» وكأنه أصبح واعيا بالحياة، غيرٌ بسرعة من تعبير وجهه.

– «هذا يتوقف عليك، إذا كنت تعرف بما يكفى لأن تقول متي جئت أنا إلى هنا، فسأرحل غدا ولن أتورط فى هذا ثانية.

هل تحب ذلك؟.

أومأ خوسيه بالايجاب، مبتسماً وواثقا . مالت المرأة تجاهه.

«إذا عدت إلى هنا يوما سأشعر بالغيرة لو رأيت امرأة تتحدث إليك».

– «إذا عدت إلى هنا فعليك أن تحضرى لى شيئا».

– «أعدك أنى سأبحث فى كل مكان عن الدب الأليف وأحضره لك».

ابتسم خوسيه ولوح بقطعة القماش فى الهواء الذى يفصله عن المرأة، كما لو كان ينظف لوحا زجاجياً غير مرئى. ابتسمت المرأة أيضا، لكن هذه المرة فى مودة ودلال أنثوى. ثم ذهب الرجل بعيدا، ينظف الزجاج فى الطرف الثانى من الطاولة.

– «ماذا إذن؟» سألها خوسيه دون أن ينظر إليها.

– «هل فعلا ستقول لأى شخص يسألك أنى جئت إلى هنا فى الساعة السادسة إلا ربع؟».

– لماذا قال خوسيه دون أن ينظر إليها.

– «هذا لا يهم المهم أن تفعل ذلك».

ثم رأى خوسيه أول زبون يدخل من الباب الدوار ويمشى إلى منضدة فى الركن نظر إلى ساعة الحائط. كانت السادسة والنصف تماما قال وكأنه يصرف الانتباه: «وهو كذلك يا ملكة أى شىء تقولينه سأفعله مهما كان».

– «حسنا ابدأ إذن فى إعداد قطعة اللحم لى».

ذهب الرجل إلى الثلاجة أخذ طبقاً به قطعة لحم، وتركه على المائدة ثم أوقد الفرن قال:

– «إني ذاهب لأسوى لك طبق الوداع يا ملكة».

– «شكرا يا بيبلو».

بقيت مفكرة، كأنها غرقت فجأة فى عالم سفلى غاص بأناس مجهولين عبر المائدة لم تستطع أن تسمع الصوت الذى أحدثته قطعة

– «ماذا؟».

– «فيم تفكر؟».

– «كنت أتساءل ما إذا كنت ستجدين ذلك الدب الصغير».

– «بالطبع أستطيع لكن ما أطلبه منك هو أن تنفذ ما اتفقنا عليه وتلك هى هدية الوداع التى أريدهامنك».

نظر إليها خوسيه وهو بجوار الموقد وقال:

– «هل تريدين شيئا بجانب أحسن قطعة لحم أقدمها لك».

– «نعم».

– «ما هو؟».

– أريد ربع ساعة آخر».

استدارخوسيه ونظر إلى ساعة الحائط. ثم نظر إلى الزبون. الذى كان ما يزال صامتا، منتظرا فى الركن، وأخيرا نظر إلى قطعة اللحم وهى تحمر فى المقلاة، هنا فقط تكلم

– «حقيقة أنا لا أفهم يا ملكة».

– «لاتكن أحمق يا خوسيه. فقط تذكر أننى هنا منذ الخامسة والنصف».

المحتوى